رواية نفسية فلسفية



الإنسان

وجدان الحامدي

الإنسان

وجدان الحامدي

المقدمة

لم يكن أحد يعلم متى بدأ الظلام، ولا إن كان الظلام قد جاء من الخارج أم أنه كان يسكن داخل الإنسان منذ البداية. كان العالم يمضي في صمته الطويل، يحمل فوق كتفيه أجيالًا ولدت، وأخرى ماتت وهي تبحث عن شيء لم تستطع تسميته. شيء يشبه الحقيقة، يشبه النجاة، يشبه المعنى الذي يختبئ خلف كل سؤال.

في مكان لا يعرفه أحد، تحت طبقات من الزمن والنسيان، ظهرت زهرة.

لم تأتِ من قصر، ولا من نسب عظيم، ولا من مكان يليق بمن سيغير طريقة نظر البشر إلى أنفسهم. خرجت من غبار الجهل، من بين بقايا الأفكار المهملة، وكأنها لم تولد من رحم الحياة، بل من سؤال قديم رفض أن يموت.

كانت غريبة في حضورها؛ لا لأنها كانت تملك أجوبة كثيرة، بل لأنها كانت تعرف خطورة الأجوبة. كانت تنظر إلى الإنسان بطريقة مختلفة، كأنها لا ترى جسده فقط،

ولا تراه مجرد كائن تحكمه الغرائز والخوف والرغبات، بل تراه لغزًا يسير على قدمين.

كانت تقول لهم: أنتم لا تعرفون حجم ما تحملون.

لكنهم كانوا يضحكون.

كيف يمكن لكائن ضعيف، مقيّد بجسد، محكوم بالزمن، أن يحمل شيئًا يتجاوز ضعفه؟ كيف يمكن لإنسان يخاف الموت، ويبحث عن الطعام، ويهرب من الألم، أن يكون قادرًا على لمس أسرار الوجود؟

لم تكن زهرة تحاول إقناعهم بأنهم آلهة، ولم تكن تريد أن تجعلهم ينسون ضعفهم. بل كانت تريد أن تكشف لهم مفارقة أخطر: أن ضعفهم نفسه هو الباب الذي يخفي قوتهم.

كانت تأخذهم إلى البحر.

تطلب منهم أن يتخيلوا إنسانًا غارقًا في أعماقه، يحيط به السواد من كل جانب، وقد أثقل الماء جسده حتى ظن أن النهاية اقتربت. يرفع وجهه نحو السماء، يتوسل النجاة، ينتظر قوة تأتي من الخارج لتنقذه.

ثم تصمت.

وبعد لحظة تقول:

"تخيلوا لو اكتشف أنه كان يحمل في داخله القدرة على المقاومة منذ البداية".

عندها يتغير المشهد.

لا يعود ذلك الإنسان مجرد ضحية غارقة في بحر قاسٍ، بل يصبح بطلًا في لحظة اكتشاف. لا لأنه هزم البحر، بل لأنه هزم الوهم الذي جعله يعتقد أنه عاجز تمامًا.

كانت زهرة ترى أن الإنسان يعيش مأساة فريدة؛ فهو الكائن الوحيد الذي يعرف ضعفه، لكنه في الوقت نفسه قادر على بناء قوة من هذا الوعي. الحيوان يعيش داخل جسده دون أن يحاكم وجوده، أما الإنسان فيسأل عن نفسه، وعن جسده، وعن العالم الذي وُضع فيه.

إنه الكائن الذي لا يكتفي بأن يعيش، بل يريد أن يفهم لماذا يعيش.

ولهذا كان العقل عند زهرة أكثر الألغاز غموضًا. لم تكن تراه مجرد أداة صنعها الإنسان، بل شيئًا يكشف عن نفسه من خلال الإنسان. فالعقل لا يظهر خارج الجسد، ولا يعمل بعيدًا عن الغرائز والعواطف والتجارب، لكنه رغم ذلك يستطيع أن يتجاوز حدود هذه الأشياء كلها.

ذلك الكائن المحدود استطاع أن ينظر إلى ما لا تراه عيناه، وأن يكتشف الذرات التي لم يلمسها، وأن يفهم قوانين تسير بها نجوم بعيدة عنه. لكنه بقي عاجزًا أمام أسئلة أخرى، أسئلة يشعر أنها أكبر من أدواته.

وهنا كانت زهرة تبتسم.

لأنها لم ترَ في هذا العجز هزيمة.

كانت ترى فيه أعظم تناقض صنع الإنسان: عقل يبحث عن المطلق وهو يعمل داخل النسبي. عقل يريد أن يفهم الوجود كله، لكنه موجود داخل كائن محدود بالزمان والمكان والجسد.

وكان سؤالها الدائم:

هل هذا نقص في الإنسان؟

أم أن هذا هو السبب الذي جعله إنسانًا؟

لم تكن زهرة تبحث عن إجابة نهائية. ربما كانت تعرف أن بعض الإجابات عندما تأتي تُغلق الأبواب التي صنعتها الأسئلة. كانت تريد فقط أن توقظ شيئًا نائمًا داخل البشر: ذلك الشعور بأن الإنسان ليس مجرد كائن ينتظر مصيره، بل كائن يشارك في تشكيله.

كانت تؤمن أن الإنسان لم يُخلق كاملًا، لأن الكمال النهائي قد يقتل الرحلة. فالكائن الذي يعرف كل شيء لا يبحث، والذي لا يبحث لا يكتشف، والذي لا يكتشف لا يتغير.

أما الإنسان، فقد أُعطي عقلًا ناقصًا لا ليبقى ناقصًا، بل ليحمل مسؤولية الاكتمال.

لكن الغريب أن أحدًا لم يعرف حقيقة زهرة.

لم يعرفوا من أين جاءت، ولا لماذا ظهرت في ذلك الزمن بالذات، ولا لماذا كانت تحاول إقناع الجميع بأنهم ليسوا عاجزين كما يظنون.

هل كانت تريد تحرير الإنسان من خوفه؟

أم كانت تحاول دفعه إلى مواجهة شيء أخطر في داخله؟

هل كانت تفكر بعقل امرأة فقط، أم أنها تجاوزت حدود الجسد الذي وُلدت فيه، وأصبحت تنظر إلى الإنسان من مكان لا يعرفه البشر؟

ظل السؤال معلقًا.

وظلت زهرة تمشي بين الناس، تحمل سرًا لا يعرف أحد إن كان خلاصًا أم بداية لشيء أكثر غموضًا.

فربما أعظم ألغاز الإنسان ليست أنه لا يعرف العالم، بل أنه ما زال لا يعرف نفسه.حاولت أن أجعل زهرة رمزًا للسؤال نفسه: ليست شخصية تعطي محاضرة، بل قوة تدخل القصة وتغير نظرة الشخصيات إلى وجودهم.



باشرت زهرة سؤالها الأول في السابعة عشرة

من عمرها.

لم يكن سؤالًا عاديًا، ولم يكن وليد فضول عابر كما ظنت أمها. كان سؤالًا خرج من مكان مظلم داخلها؛ من منطقة تختلط فيها لوعة الفقد بقسوة الحقيقة. كانت هناك أسئلة لا تولد من الرغبة في المعرفة، بل من الألم الذي يعجز عن الصمت.

نظرت إلى أمها ذات مساء، وكأنها تجمع شجاعة سبعة عشر عامًا في لحظة واحدة، ثم قالت:

—أين أبي؟

لم يتغير وجه أمها. كأن السؤال لم يفاجئها، وكأنها كانت تنتظر اليوم الذي ستُفتح فيه تلك الحفرة القديمة.

قالت ببرود:

—في الجحيم.

ساد الصمت.

لكن زهرة لم تقبل الجواب.

رفعت عينيها وقالت:

—ليس في الجحيم... إنه في البحر.

ارتجف شيء ما في وجه أمها. وفي لحظة انفجارلم تفهمها زهرة، نزلت يد أمها على وجهها.

كانت الصفعة أقسى من الألم نفسه؛ لأنها لم تكن موجهة إلى سؤالها فقط، بل إلى كل شيء حاولت أن تفهمه.

قالت أمها بصوت يحمل غضبًا أقدم من تلك اللحظة:

—ماذا تريدين؟ ألم تعودي تلك الفتاة البغيضة التي كانت تكره والدها وتمقته؟ ألم تكوني أنتِ من قلتِ يومًا إنه تخلى عنكِ؟ إنه لم يأتِ في ذلك اليوم حين كنتِ تنتظرينه؟

وضعت زهرة يدها على وجهها، لكنها لم تتراجع.

قالت بصوت مرتجف:

—لكن... لكن ألم يكن عليه أن ينقذ نفسه؟ كان سباحًا محترفًا. كان يعرف البحر أكثر من أي شخص. لماذا لم ينجُ؟ لماذا اختار الموت؟ أخبريني... لماذا؟ ولماذا تكرهينني أنا بالذات؟ لماذا بعد موته أصبح وجودي يؤلمك أكثر؟

نظرت إليها أمها طويلًا، وكأنها لا ترى ابنتها، بل ترى شخصًا آخر يطل من خلف عينيها.

ثم قالت:

—لأنك تشبهينه.

سكتت قليلًا، ثم تابعت:

—تشبهين فضوله المقزز. ذلك الرجل الذي لم يكن يعرف كيف يتوقف عن السؤال. كان يسأل عن كل شيء، ينبش الماضي، يبحث عن الأسباب، يريد أن يفهم ما لا يجب فهمه. وماذا جنى من كل ذلك؟ ماذا أعطاه السؤال عن ماضيه؟ لم يجلب له إلا الخراب.

اقتربت منها وقالت:

—لقد دمر حياتي. ترك فوق كتفي أربعة أطفال مثلكم لأحملهم وحدي. كان يستطيع أن يختار حياة أخرى، كان يستطيع أن يتركني خارج هذا الجحيم. لماذا تزوجني؟ لماذا أدخلني في هذه الدوامة؟ لماذا لم يمت وحده؟ لماذا كان عليه أن يتركني أعيش نتائج أسئلته؟

بقيت زهرة صامتة.

لأول مرة لم تسمع في كلام أمها كراهية فقط، بل سمعت شيئًا أعمق: خوفًا من السؤال نفسه.

كانت أمها لا تكره أباها لأنه مات، بل لأنها شعرت أن فضوله أخذه منها. أما زهرة، فقد شعرت للمرة الأولى أن الموت لم يكن نهاية القصة، بل بداية سؤال أكبر.

إذا كان السؤال قادرًا على تدمير حياة إنسان، فهل المشكلة في السؤال؟

أم في الإنسان الذي لا يحتمل الإجابة؟

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد زهرة تبحث عن أبيها فقط.

بدأت تبحث عن السبب الذي يجعل الإنسان، رغم كل ما يخسره، يصر على أن يعرف.

تقدمت زهرة نحو أمها، والدموع تنحدر على وجهها حتى لامست قدميها المتعبتين، وكأن جسدها كله كان يحمل ثقل سؤال لم يجد مكانًا يخرج منه.

قالت بصوت مكسور، لكنه لم يفقد قوته:

— وما ذنبي أنا؟ أخبريني... لماذا تعذبينني كل يوم؟ لماذا تهينينني أمام الجميع فقط لأنني أحبه؟ ماذا في ذلك؟ هل أصبح الحب جريمة؟ على الأقل كان هناك شخص واحد في هذا العالم أحبني بصدق، شخص لم يرني عبئًا ولا ذكرى مؤلمة.

سكتت لحظة، ثم نظرت إليها بعينين ممتلئتين بالخذلان:

— ماذا فعلت غير أنني بكيت؟ ماذا فعلت غير أنني حاولت أن أفهم؟ أنتِ تلومين الجميع... تلومين أبي، تلومين عائلته، تلومين البحر، تلومين الماضي... لكنك لم تنظري إلى نفسك ولو مرة واحدة.

ثم قالت بمرارة:

— أنتِ أنانية يا أمي.

ارتجف وجه الأم، وكأن الكلمة أصابت جرحًا لم يلتئم منذ سنوات.

صرخت:

— سحقًا له... وسحقًا لكِ لأنك تشبهينه!

ثم انفجرت الكلمات منها كأنها كانت تنتظر عمرًا كاملًا لتخرج:

— تزوجته و أنا في عمرك. كنت أظن أنني وجدت الحياة، وكنت أظن أن الحب سينقذني. والآن أنا أقترب من الأربعين، ماذا بقي مني؟ تركني و أنا في ريعان شبابي. تركني لأجل أمه اللعينة، وأخيه، وعائلته التي لم تعرف إلا أن تنبش الجروح وتلقي عليه سر موت أبيه في البحر.

اقتربت من النافذة، وعيناها معلقتان بالبحر البعيد.

ثم قالت بصوت خافت:

— لقد مات لأنه صدق أن البحر سيحرره... ظن أن الماء سيغسل عجزه. ظن أنه يستطيع الهروب من نفسه. لكنه لم يفهم أن الإنسان لا يهرب من داخله.

ساد صمت ثقيل.

وفجأة ظهر شقيق زهرة الأكبر عند الباب.

كان يحمل في يده مزهرية قديمة، متآكلة الأطراف، وكأنه يحمل شيئًا خرج من زمن آخر. لم يقل شيئًا في البداية. فقط أشار بيده نحو الشرفة المطلة على البحر، حيث كانت الأمواج تلتهم المسافة بين الماضي والحاضر.

كانت عيناه لا تفارقان زهرة.

ثم قال:

— وجدت شيئًا.

اقترب ببطء، ووضع المزهرية جانبًا.

— وجدته في أعماق تلك الرمال الصفراء التي لعبنا فوقها تسعة عشر عامًا. تلك الرمال التي ظننا أنها لا تحمل إلا ذكريات طفولتنا.

نظر إلى زهرة.

— هل تعرفين ماذا وجدت؟

لم تجب.

قال:

— رسالة.

توقفت الأنفاس.

— رسالة كتبها هو.

ثم أخرج الورقة وكأنها قطعة من حياة رجل لم يمت تمامًا.

وقال:

— تعرفين ماذا كتب؟

فتح الرسالة، ومرر عينيه على الكلمات القديمة.

ثم قرأ:

"سيأكلنا الموت ما دمنا نعيش هنا."

ارتجف صوت الأخ.

— وهذه الكلمات... كتبها أبي.

رفع عينيه نحو البحر.

— بخط يده.

في تلك اللحظة، لم يعد البحر مجرد مكان مات فيه رجل.

أصبح شاهدًا.

شاهدًا على سؤال لم ينتهِ بعد: هل كان الأب رجلًا هاربًا من الحياة؟ أم رجلًا كان يبحث عن معنى لم يستطع أحد فهمه؟

مدّت الأم يدها المرتجفة نحو البندقية المعلقة على الجدار.

لم تكن يد امرأة غاضبة، بل يد إنسانة أنهكها حمل الماضي حتى أصبح أثقل من قدرتها على الاحتمال. أمسكت بها، ووجهتها نحو رأسها، بينما كان الصمت في الغرفة أشد قسوة من أي صراخ.

نظرت إلى زهرة.

— أنتِ ابنتي... مهما حدث ستبقين ابنتي. لكن هذا الأمر لم يعد يحتمل.

ارتجف صوتها.

— لم تعرفي أباك كما عرفته أنا. لم تعرفي ذلك الرجل الذي كان يعيش وكأنه يعاقب نفسه كل يوم. كان يكره نفسه بطريقة لا يستطيع أحد فهمها... حتى عندما كنت أنام بجانبه، كنت أشعر وكأن شيئًا في داخله يرفض الحياة. كأن الأرض نفسها ستبتلعني من شدة ذلك الخراب الذي كان يحمله.

خفضت البندقية قليلًا، ثم تابعت:

— كان يحمل ذنبًا أكبر منه. ذنبًا لم يصنعه وحده، لكنه جعله سجنه الخاص.

ساد الصمت.

ثم قالت:

— قتل عمك جدك... وألقاه في البحر. ولم نعرف الحقيقة إلا بعد شهر كامل. وعندما اكتشف أبوك الأمر، أراد أن يبحث عنه في البحر، كأنه كان يظن أن الماء سيعيد إليه شيئًا فقده.

نظرت نحو النافذة، نحو ذلك البحر الذي أخذ الكثير من حياتهم.

— لكنه لم يجده.

ابتسمت ابتسامة حزينة.

— هل تعرفين لماذا كان يلوم نفسه؟ لأنه لم يتحدث مع أبيه منذ سبع سنوات. منذ أن كنتِ في العاشرة. سبع سنوات كاملة كان يظن فيها أن الصمت يمكن أن يُصلح الأشياء، حتى اكتشف أن بعض الصمت يتحول إلى قبر.

ثم أضافت:

— أما عمك... فلم يكتفِ بما فعله. أراد أن يجعل الجريمة تبدو كأنها خرجت منا نحن. ألقى الجسد هنا، وأراد أن يترك معنا التهمة والعار.

بقيت زهرة تنظر إليها، عاجزة عن معرفة أين تنتهي الحقيقة و أين يبدأ الألم.

قال الأخ:

— في ذلك اليوم دخل عمي ومعه شرطيان... لم أنسَ ذلك اليوم أبدًا، كأنه محفور في رأسي. دخلوا البيت وكأنهم دخلوا إلى مكان للجريمة، لا إلى بيت عائلة. ألقوا القبض على أمي مباشرة، ثم على أبي، وجرّوهما إلى المخفر أمام أعيننا.

لكن عمي لم يكتفِ بذلك...

ظل يضربني، يضربني وكأنه لا يرى أمامه طفلًا، وكأنه كان يريد أن ينتقم من شيء لا علاقة لي به. لم أفهم حينها لماذا كان يكرهني، لماذا كان يحمل كل ذلك الغضب

نحوي. كنت أصرخ، و أبكي، وأحاول أن أهرب، لكنه لم يتوقف حتى تمزقت أحشائي من الألم.

كنت صغيرًا جدًا، لكنني شعرت في ذلك اليوم أنني فقدت شيئًا لن يعود أبدًا.

وعندما أُفرِج عن أبي، عاد إلى البيت ووجدني في حال يرثى لها. لم يكن يعرف ماذا يفعل، كان ينظر إليّ وكأنه يرى أمامه نتيجة شيء لم يستطع منعه.

لكن أمي... لم تعد.

لم تعد بعد خروجها.

كانت حاملًا بإخوتي التوأم، وذهبت إلى عائلتها. أما أنا فبقيت وحدي في ذلك البيت، البيت الذي لم يعد بيتًا بعد ذلك اليوم.

بقيت فيه وكأنني أعيش مع أشباح لا تُرى. كل زاوية كانت تحمل شيئًا من الماضي، كل جدار كان يذكرني بما حدث، وكل ليلة كنت أنتظر أن يعود أحد لينقذني.

لكن لم يأتِ أحد.

تركت هناك... مشوهًا، لا في جسدي فقط، بل في شيء أعمق لم أستطع تسميته.

دوّى صوت إطلاق النار في أرجاء البيت المطل على البحر، فاهتزت النوافذ وارتجفت الجدران العتيقة كأنها شهدت أخيرًا اللحظة التي كانت تخشاها منذ سنوات. لم تستوعب زهرة ما حدث في البداية، فقد رأت فقط جسد أمها يتراجع إلى الخلف قبل أن يسقط بعنف فوق الأرض، بينما تناثر الدم فوق الأثاث والجدران ووجوه أبنائها. بقيت للحظات تحدق في المشهد دون أن تتحرك، كأن الزمن توقف فجأة، وكأن عقلها قرر أن يؤجل الفهم إلى وقت آخر.

أما أمها، فقد انتهت أخيرًا من معركتها الطويلة مع الحياة. انتهت من لومها للعالم، ومن كراهيتها للبحر، ومن حربها مع الذكريات التي ظلت تطاردها سنوات طويلة. ماتت كما عاشت في السنوات الأخيرة؛ مثقلة بالخسارات والضغائن والكوابيس التي لم تستطع الهروب منها مهما حاولت.

في تلك اللحظة أطلق الأخ الأكبر صرخة هائلة مزقت الصمت، ثم تحول صراخه تدريجيًا إلى ضحك غريب أربك زهرة أكثر من صوت الرصاصة نفسها. نظرت إليه غير مصدقة، فرأت في عينيه بريقًا لم تره من قبل. لم يكن بريق الحزن ولا بريق الجنون وحده، بل شيئًا يشبه الراحة الممزوجة بالانهيار.

حاولت أن تنطق، أن تسأله عما يحدث، لكن الكلمات خرجت ضعيفة ومشوشة.

— ماذا حدث؟

غير أن أخاها لم يكن يسمعها أصلًا. كان غارقًا داخل عالم آخر، عالم بدأ يتشكل في داخله منذ سنوات طويلة. فالحقيقة أن ما جرى لم يكن مفاجئًا بالنسبة إليه، بل كان ينتظر حدوثه على أحر من الجمر. لقد عاش عمره كله داخل بيت تتغذى جدرانه على الألم، ورأى أمه تنهار ببطء عامًا بعد عام، ورأى أباه يغرق في ذنوبه القديمة، ورأى نفسه يتحول إلى شبح يتجول بين الغرف دون أن يلتفت إليه أحد.

ولهذا لم يدخل الغرفة ذلك المساء دون استعداد.

كان قد خبأ العقرب الأسود داخل المزهرية قبل ساعات، وربما قبل أيام، حتى هو لم يعد يتذكر متى اتخذ قراره. كل ما كان يعرفه أنه تعب من الانتظار. تعب من الاستيقاظ كل صباح ليجد نفسه في البيت ذاته، محاطًا بالذكريات ذاتها، والكوابيس ذاتها، والأسئلة ذاتها التي لا تجد جوابًا.

عندما رفعت أمه البندقية إلى رأسها، لم يشعر بالخوف كما شعرت زهرة، بل شعر أن شيئًا ثقيلاً كان جاثمًا فوق صدره بدأ ينزاح أخيرًا. ولذلك اتسعت عيناه فجأة، ثم انفجر ضاحكًا ضحكة هستيرية طويلة. كانت ضحكة شخص رأى النهاية التي انتظرها طويلًا، وضحكة شخص لم يعد يملك شيئًا يخسره.

واستمر في الضحك حتى بعد سقوط أمه.

واستمر في الضحك حتى عندما احتضن المزهرية بين ذراعيه كما لو كان يحتضن طفلًا ضائعًا أو حلمًا قديمًا.

ثم رفعها فوق رأسه وأسقطها بكل قوته على جمجمته.

انفجرت المزهرية وتناثرت شظاياها في كل اتجاه، وتشقق جلده تحت قوة الارتطام، وبدأ الدم يسيل فوق وجهه وعنقه، لكن الضحك لم يتوقف.

وعندما خرج العقرب الأسود من بين قطع الفخار المكسور وغرس سمه في جسده، لم يتوقف الضحك أيضًا.

ظل يضحك.

وظل يضحك.

إلى أن أصبح الضحك أنفاسًا متقطعة.

ثم تحول إلى شهقات ضعيفة.

ثم اختفى تمامًا.

وسقط إلى جوار أمه.

وكأن الموت كان ينتظره منذ البداية في المكان نفسه.

أما زهرة فلم تعد قادرة على احتمال ما تراه. شعرت أن الغرفة تدور حولها، وأن الجدران تنكمش من كل الجهات، وأن الهواء أصبح أثقل من أن تتنفسه. حاولت أن تتقدم خطوة لكنها تعثرت، ثم أمسكت بالبندقية التي سقطت من يد أمها، وانهارت فوق الأرض فاقدة الوعي.

وحين استعادت وعيها لاحقًا لم تعرف كم من الوقت مر عليها. كان البيت غارقًا في صمت ثقيل، ولم يعد هناك سوى رائحة الدم والموت. فتحت عينيها ببطء ونظرت حولها، فرأت الجثتين ممددتين على الأرض كأنهما جزء من كابوس لم ينته بعد.

وقفت بصعوبة.

لم تبك.

ولم تصرخ.

فبعض المآسي تكون أضخم من الدموع.

خرجت من البيت دون أن تلتفت خلفها، وسارت نحو الشاطئ بخطوات متثاقلة، بينما كانت الرمال الصفراء تستقبل قدميها كما استقبلتهما منذ طفولتها. وعندما وصلت إلى البحر وقفت أمامه طويلًا. كانت الأمواج تتحرك بهدوء، والنسيم يداعب سطح الماء، حتى بدا المشهد ساخرًا في جماله.

كيف يستطيع البحر أن يبدو هادئًا إلى هذا الحد بعد كل ما أخذه منها؟

حدقت في الأفق البعيد، وشعرت للحظة أن البحر هو عدوها الحقيقي. فهو الذي ابتلع أباها، وهو الذي ظل حاضرًا في كل حكايات العائلة، وهو الذي تحول إلى شاهد أبدي على انهيارهم جميعًا.

لكنها سرعان ما أدركت أن البحر لم يقتل أحدًا.

لقد كان الجميع يحملون بحارهم الخاصة داخلهم.

كان أبوها يغرق في ذنبه.

وكانت أمها تغرق في كراهيتها.

وكان أخوها يغرق في وحدته.

أما هي فكانت تغرق في الأسئلة.

وهنا فقط شعرت بالرعب الحقيقي.

لم يكن الموت هو أكثر ما أخافها.

بل فكرة أن يتحول الموت إلى وسيلة للهروب من الحقيقة.

فقد ماتت أمها هربًا من ذكرياتها، ومات أخوها هربًا من وحدته، وربما مات أبوها هربًا من عجزه عن مسامحة نفسه.

أما هي فلم تكن تعرف إن كانت تملك القوة الكافية لتعيش مع الحقيقة بدل الهرب منها.

رفعت عينيها نحو البحر مرة أخرى، ثم تذكرت التوأم.

التوأم اللذين لم تعرفهما يومًا معرفة حقيقية، لأن أمها أبعدتهما منذ الصغر إلى بيت الجدين بعيدًا عن هذا الخراب كله.

ولأول مرة منذ موت أمها وأخيها شعرت بالخوف من المستقبل أكثر من خوفها من الماضي.

فإذا عاد التوأم يومًا إلى هذا البيت...

فهل سيعيشون المصير نفسه؟

أم أن أحدًا منهم سينجح أخيرًا في كسر السلسلة التي التهمت هذه العائلة جيلًا بعد جيل؟

لم تجرؤ زهرة على العودة إلى البيت مرة أخرى، فكلما حاولت أن تتخيل نفسها وهي تعبر عتبته عادت إليها صورة أمها الملقاة فوق الأرض وصورة أخيها الغارق في دمه، فتشعر بأن قدميها فقدتا القدرة على الحركة. لم تستطع حتى أن تفكر في دفنهما، إذ بدا لها أن مجرد الاقتراب من الجثتين سيجعلها تنهار هي الأخرى، ولذلك تركتهما هناك داخل ذلك المنزل المطل على البحر وتركت معهما سنوات كاملة من الذكريات والألم والخوف. وبعد أن غادرت المكان أخذت تمشي على طول الشاطئ بلا هدف واضح، وكانت الرمال تنزلق تحت قدميها بينما ظل عقلها عالقًا داخل تلك الغرفة التي شهدت انهيار عائلتها. ومع كل خطوة كانت الأسئلة تتكاثر في رأسها حتى تحولت إلى ضجيج لا يهدأ، وكان سؤال واحد يطغى على كل شيء: لماذا؟ لماذا انتهت حياتهم بهذه الطريقة؟ ولماذا كان عمها حاضرًا في كل مأساة أصابت العائلة؟ وكلما حاولت الهروب من هذه الأسئلة عادت إليها بقوة أكبر حتى وجدت نفسها و اقفة أمام منزل عمها دون أن تدرك كيف وصلت إليه. كان المنزل فخمًا على نحو يثير الغضب، فقد كانت حديقته مرتبة بعناية ونو افذه الواسعة تعكس ضوء الشمس، بينما بدا كل شيء فيه هادئًا ومستقرًا وكأنه لم يكن جزءًا من الكارثة التي التهمت حياتها.

دفعت الباب ودخلت بخطوات متثاقلة، وعندما وقع بصر عمها عليها تجمد في مكانه، إذ لم يكن يتوقع أن يرى أمامه فتاة بثياب ملطخة بالدماء وشعر مبعثر وعينين فارغتين من كل شيء إلا الحزن. نهض ببطء وهو يحاول استيعاب المشهد، لكن زهرة لم تمنحه فرصة للكلام، بل تقدمت نحوه مباشرة وقالت بصوت خافت لكنه كان أثقل من الصراخ:

— لماذا؟

ظل ينظر إليها دون جواب، فأعادت السؤال وهي تقترب منه أكثر:

— لماذا؟

ثم شعرت فجأة بأن كل ما اختزنته داخلها طوال السنوات الماضية بدأ يندفع خارجها دفعة واحدة، فقالت وهي ترتجف من شدة الانفعال:

— لماذا أنت وحش؟ لماذا فتكت بنا جميعًا؟ لماذا دمرت حياتنا؟ ولماذا لم تمت أنت بدل أبي؟ أليس أنت من سفك دم أبيك؟ أليس أنت من جر هذه العائلة كلها إلى الهاوية؟

ثم أشارت إلى ثيابها الملطخة بالدماء وأكملت:

— انظر إليّ... هذه دماء عائلتي. دماء أمي ودماء أخي. أتعرف ماذا حدث اليوم؟ لقد ماتا. ماتا وتركا كل شيء خلفهما بينما ما زلت أنت تعيش هنا في هذا البيت الهادئ وكأن شيئًا لم يحدث. لماذا تبدو سعيدًا؟ هل أنعشت روحك رائحة الدماء؟ هل أصبحت شيئًا آخر غير الإنسان؟ أخبرني... ماذا بقي منك بعد كل هذا؟

ظل الرجل صامتًا، وكان الصمت يزيد من غضبها أكثر مما لو أجابها، غير أن زوجته خرجت في تلك اللحظة من إحدى الغرف بعد أن سمعت الأصوات المرتفعة. وما إن رأت زهرة حتى عقدت حاجبيها و اقتربت منها بسرعة وصفعتها بقوة وهي تقول:

— كيف تجرئين على اقتحام منزلنا والتحدث إلى زوجي بهذه الطريقة؟ ومن أنت أصلًا؟

استدارت زهرة نحوها ببطء، ولم يظهر على وجهها أي أثر للغضب أو الرغبة في الرد، بل بدا وكأنها استنفدت كل ما تملك من مشاعر. حدقت فيها للحظات ثم قالت بصوت مبحوح:

— من أنا؟

وسكتت قليلًا قبل أن تكمل:

— أنا ابنة أبي... و أنا ابنة أمي... و أنا ابنة ابن أبيه. نحن عائلة. نحن لسنا غرباء. نحن أشخاص تجمعهم الذكريات نفسها والقبور نفسها وقطرات الدم نفسها.

ثم التفتت نحو عمها مرة أخرى وكأن وجود زوجته لم يعد يعني لها شيئًا، وقالت:

— لطالما قيل لنا إن الدم يوحد الناس، لكنني لم أرفي حياتي سوى الدم وهو يمزقهم. لقد مات أبي، وماتت أمي، ومات أخي، وكل واحد منهم حمل جرحه معه إلى القبر. أما أنا فقد بقيت هنا أحمل ما تبقى من هذا الخراب، ولذلك أريد جوابًا واحدًا فقط.

وتقدمت خطوة أخرى حتى أصبحت على بعد أمتار قليلة منه ثم قالت:

— متى بدأنا نقتل بعضنا ونحن نسمي أنفسنا عائلة؟

عندها فقط ارتعشت ملامح الرجل للمرة الأولى. لم يكن الخوف هو ما ظهر على وجهه، بل شيء أقرب إلى الإرهاق، كأن السؤال أعاده إلى سنوات طويلة حاول دفنها في أعماق ذاكرته. أما زهرة فكانت تنظر إليه بعناد غريب، إذ لم تعد تبحث عن الانتقام، ولم تعد حتى تبحث عن العدالة، بل كانت تبحث عن المعنى. كانت تريد أن تعرف كيف يمكن لعائلة كاملة أن تتحول إلى هذا الركام من الموت والكراهية. كانت تريد أن تعرف في أي لحظة تحديدًا بدأ كل شيء ينهار، وفي أي لحظة تحولت روابط الدم إلى سلاسل تخنق أصحابها بدل أن تحميهم. ولأول مرة منذ وفاة أمها وأخيها شعرت أن الجواب الذي تنتظره قد لا يكون مخفيًا في البحر الذي ابتلع أباها، ولا في البيت الذي ماتت فيه أمها، بل في الرجل الواقف أمامها، الرجل الذي ظل حاضرًا في كل قصة حزينة سمعتها منذ طفولتها، والرجل الذي ربما كان يحمل في صدره سر الخراب الذي التهم العائلة جيلًا بعد جيل.

خرجت زهرة من منزل عمها وقد استنزفتها الأسئلة أكثر مما استنزفتها المأساة نفسها. كانت تشعر وكأنها قضت ساعات تخاطب جدارًا أصم لا يسمع ولا يجيب، ومع ذلك لم تستطع التخلص من إحساس غريب ظل يلاحقها وهي تبتعد عن المنزل. لم يكن عمها الرجل الهادئ الذي بدا أمامها، ولم يكن ذلك الوحش البسيط الذي رسمته في خيالها طوال سنوات. كان شيئًا أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير، شيئًا لا تستطيع أن تمنحه اسمًا واضحًا. فقد رأت في عينيه اضطرابًا لم تستطع تجاهله، ورأت خلف صمته نارًا قديمة ما تزال مشتعلة رغم مرور السنين. أما هو فبقي واقفًا في مكانه بعد رحيلها، كأن كلماتها أيقظت أشباحًا دفنها منذ زمن بعيد. نظر إلى صورته المنعكسة على زجاج النافذة، ثم رفع يده وصفع نفسه بقوة. كانت الصفعة الأولى عقابًا على أخيه، على ذلك اليوم الذي اختار فيه أن يحمي سمعته ويترك أخاه يسقط وحده في الهاوية. ثم جاءت الصفعة الثانية لأنه أفرغ أمراضه النفسية كلها في تلك العائلة قبل أن يتعلم كيف يواجهها داخل نفسه. أما الثالثة فكانت الأقسى، لأنها أعادته إلى طفلة صغيرة حملت اسم زهرة، ابنته التي ماتت بين يديه في ليلة عاصفة، وظل منذ ذلك اليوم يحمل شعورًا خفيًا بأنه فشل في إنقاذها. ثم جاءت الصفعة الأخيرة، الصفعة التي لم تكن موجهة إلى وجهه بقدر ما كانت موجهة إلى ماضيه كله، لأنه انتقم من أبيه يومًا معتقدًا أن الانتقام سيحرره من سنوات التعذيب التي عاشها تحت سلطته، لكنه اكتشف متأخرًا أن الكراهية لا تحرر أحدًا، بل تورث نفسها من جيل إلى جيل.

وفي تلك الأثناء كانت زهرة تسير بمحاذاة الشاطئ، بينما كانت الرياح تعبث بشعرها المنكوش وتحجب الرؤية عن عينيها بين الحين والآخر. لم تعد تفكر في عمها وحده، بل في الجميع. في أبيها، وأمها، وأخيها، وعمها، وحتى جدها الذي لم

تعرفه إلا من الحكايات. وكلما استعرضت وجوههم داخل ذاكرتها شعرت أن شيئًا واحدًا كان يجمعهم جميعًا رغم اختلافهم. لم يكن الشر، ولم يكن الضعف، ولم يكن الجنون. كان سوء الفهم. لقد بدا لها فجأة أن كل واحد منهم عاش أسير صورة ناقصة عن الآخر، وأن كل واحد منهم كان يقاتل شبحًا صنعه بنفسه ثم يظنه حقيقة. أبوها ظن أنه قادر على النجاة وحده فغرق في ذنبه، وأمها ظنت أن غضبها سيحميها فتحول إلى سجن، وأخوها ظن أن الموت سيمنحه السلام، أما عمها فظن أن الانتقام سيمنحه الحرية، ولم يدرك أحد منهم أن الجرح الذي يرفض الإنسان النظر إليه يعود دائمًا في صورة أخرى.

رفعت زهرة رأسها نحو الأفق البعيد وسألت نفسها سؤالًا لم تعرف له جوابًا: الإنسان يدفع دائمًا ضريبة ولائه لذاته، لكن لماذا كان الجميع منشغلين بالنظر إلى الآخر؟ لماذا أمضوا حياتهم يحاكمون بعضهم بعضًا بينما كانوا يعجزون عن فهم أنفسهم؟ هل الإنسان غبي بطبعه؟ أم أن وعيه المحدود يجعله يرى العالم من خلال ألمه فقط؟ لم تجد جوابًا، لكن السؤال ظل يرافقها وهي تمشي، كأن البحر نفسه كان يردده معها في صمت.

بعد ثماني سنوات من تلك الحادثة، كانت زهرة تجلس في إحدى قاعات معرض للفنون البصرية وقد التف حولها الصحفيون والزوار والمهتمون بأعمالها. كانت القاعة مضاءة بألوان هادئة، بينما احتلت صورة ضخمة للبحر الجدار الرئيسي خلفها. لم يكن بحرًا استثنائيًا في ظاهره، مجرد أفق أزرق يمتد إلى ما لا نهاية، لكن كل من عرف قصتها كان يدرك أن تلك الصورة تحمل من المعاني أكثر مما تحمله الألوان.

جلست زهرة على كرسي منحني القامة، وقد بدت أكثر هدوءًا مما توقع الحاضرون. كانت تتحدث بصوت لين وواثق، تسرد تفاصيل حياتها كما لو كانت تروي سيرة شخص آخر. ومع كل حادثة تذكرها كانت علامات الذهول ترتسم على وجوه الصحفيين. فقد بدت قصتها أشبه بسلسلة طويلة من الصدمات المتلاحقة، حتى إن بعض الحاضرين أخذوا يحدقون فيها وكأنهم لا يصدقون أن امرأة واحدة استطاعت النجاة من كل ذلك.

ومع ذلك، وبين سيل الأسئلة الثقيلة، جاء سؤال عابر من أحد الصحفيين الجالسين في الصفوف الخلفية. لم يكن السؤال الأكثر عمقًا، ولا الأكثر جرأة، لكنه أصاب مكانًا مختلفًا داخلها.

قال الصحفي:

— كيف تجاوزت كل ذلك؟ ومن الذي دفن أمك وأخاك؟

ولسبب لم تفهمه زهرة تمامًا، شعرت بدفء غريب يجتاح قلبها. ربما لأن السؤال لم يكن يبحث عن الجريمة ولا عن الدماء ولا عن الفضائح القديمة، بل عن ما حدث بعدها. عن الحياة التي استمرت رغم كل شيء.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم سكتت لحظات كأنها عادت بذاكرتها إلى زمن بعيد.

وحين بدأت تتحدث، تغيرت نبرة صوتها.

أصبحت أكثر هدوءًا.

وأكثر براءة.

وكأن السنوات الثماني اختفت فجأة.

وقالت:

— بعد يوم واحد فقط وجد أحد المارة الباب مفتوحًا. كان يسير بمحاذاة الشاطئ، ولاحظ أن المنزل يبدو مهجورًا على نحو مريب، فاقترب منه ودخل. وهناك وجد الجثتين و أبلغ الشرطة.

ثم خفضت عينيها نحو الأرض للحظات قبل أن تتابع:

— بعد ذلك بدأت الشرطة تبحث عني. لقد ظنوا أنني ربما تعرضت للأذى أو أنني اختفيت لسبب ما. لكن الحقيقة أنني كنت غارقة في سبات مأساوي، سبات لا أعرف كيف أصفه حتى اليوم. كنت أتنفس و أتحرك وأعيش، لكنني لم أكن موجودة بالكامل.

ساد الصمت في القاعة.

أما زهرة فواصلت حديثها بهدوء:

— لن أقول إن المرحلة التي تلت ذلك كانت سهلة، لأن ذلك سيكون كذبًا. لكنني أعتقد أن الليلة نفسها كانت أكثر شراسة من كل ما جاء بعدها. ففي تلك الليلة تحطم شيء أساسي في داخلي، شيء لم أستطع إصلاحه إلا بعد سنوات طويلة.

ثم رفعت رأسها ونظرت إلى صورة البحر المعلقة خلفها.

— دفنوا أخي وأمي بجانب أبي. أذكر أنني وقفت أمام القبور يومها و أنا أشعر أن عائلتي كلها أصبحت تحت التراب دفعة واحدة.

تنهدت بخفة.

— أما أنا فقد ذهبت إلى بيت جدتي، أم أبي. هي التي آوتني عندما لم يكن لدي مكان أذهب إليه. لم تسألني كثيرًا، ولم تحاول أن تنتزع مني الكلام بالقوة. كانت تكتفي بوجودها إلى جانبي، وأعتقد اليوم أن ذلك كان أعظم ما احتجته في ذلك الوقت.

ثم ابتسمت ابتسامة امتنان حقيقية.

— بقيت معها سنوات طويلة. وهناك تعلمت أن الحياة لا تعيد إلينا ما فقدناه، لكنها تمنحنا أحيانًا القدرة على حمله دون أن نسقط. وربما لولاها لما كنت أجلس أمامكم الآن.

وعندما انتهت من كلامها خيم صمت قصير على القاعة. لم يكن صمت الشفقة، بل صمت أشخاص أدركوا فجأة أن النجاة ليست حدثًا يقع في لحظة واحدة، بل رحلة طويلة يبدأها الإنسان بعد أن يظن أن كل شيء انتهى.

لست مؤمنة بأنني قادرة على حياكة مصيري بنفسي،» قالت زهرة وهي تحدق في « فنجان القهوة أمامها. «فأنا مكتظة بالصمت إلى حد يجعلني أعجز عن الفرار منه. كلما اقتربت من الكلام، مدّ الصمت يده إليّ وجذبني إلى باحته المخيفة، فأجد .»نفسي عاجزة عن مغادرة المكان

كانت تجلس قبالة أحد رواد المطعم، رجل لم تكف عيناه عن مر اقبتها منذ بداية اللقاء. وكان يطرح أسئلته تباعًا، لا يترك زاوية من حياتها إلا وحاول النفاذ إليها. فتارةً يلاحق ماضيها كامرأة، مستخرجًا من الذاكرة ما ظنت أنه اندثر، وتارةً يشد الخناق على حاضرها كإنسانة، محاولًا أن يفهم كيف استطاعت النجاة من كل ما مرّ بها. ثم يعود فيبادرها بكلمات منمقة، يغلّف بها فضوله، كأنما يقدم لها نكهة .جديدة لحلوى قديمة طالما تذوقتها من قبل

أما زهرة فكانت تستمع وتجيب في هدوء يكاد يبدو آليًا. لم تعد تخشى الإفصاح عما يجول في خاطرها، ولم تعد ترى في الأسرار ما يستحق الحراسة. فالأشخاص الذين كانت تخاف على مشاعرهم رحلوا جميعًا. أمها ماتت ولن تعود إلى الحياة، وأخوها ابتلعته جحيم مآسيه حتى غاب إلى الأبد، ولن يعود إليها باكيًا كما كان .يفعل في طفولته، رغم أنه كان شقيقها الأكبر

ولهذا كانت تتكلم بلا مقاومة تُذكر، لا لأنها شفيت من جراحها، بل لأنها تعبت من إخفائها. كانت تشعر أن الحياة جرّدتها من أشياء كثيرة حتى لم يبقَ لديها ما تخسره. لذلك تركت الكلمات تخرج كما تشاء، وتركت الرجل يفتش بين أطلال

ذاكرتها، بينما كانت هي تنظر من خلف نافذة المطعم إلى البحر البعيد، كأنها تبحث فيه عن شيء أعمق من الأسئلة و أبعد من الأجوبة.

لم تمهد له زهرة الطريق إلى سؤال آخر أكثر حرجًا، لا لأنها كانت تخشى الجواب، بل لأنها كانت تعرف أن هذا الرجل ارتوى منذ زمن بعيد من بئر أسرارها. لقد سمع حكاياتها كلها تقريبًا، وعبر معها الممرات المظلمة من ذاكرتها، ووقف عند الجراح التي لم تندمل بعد، حتى خُيّل إليها أحيانًا أنه يعرفها أكثر مما تعرف نفسها. ومع ذلك، لم تكن نظراته توحي بالاكتفاء، ولم يكن في ملامحه أثر ذلك الشبع الذي يصيب الناس بعد أن يبلغوا ما يريدون.

كان يريدها هي.

لم يكن مجرد صحفي يلاحق قصة ناجحة، ولا مجرد رجل مفتون بامرأة أثارت فضوله. كان حبيبها الذي لم يتخلَّ عنها منذ لقائهما الأول في معرض الفنون، يوم كانت لا تزال تتعثر بين ظلال الماضي وأصداء الخسارات القديمة. وقد ساعدها، من حيث تدري أو لا تدري، على العبور نحو شهرة لم تكن تتوقعها، وفتح لها أبوابًا ظلّت موصدة في وجهها أعوامًا طويلة. غير أن ما كان يربطه بها تجاوز الامتنان والإعجاب، إذ أحبها حبًا عميقًا لم تستطع زهرة أن تفهم طبيعته فهمًا كاملًا.

ولهذا كان يعود إليها في كل مرة، لا بحثًا عن أسرار جديدة، بل بحثًا عنها هي. كان ينبش أعماقها كما يفعل المنقب في أرض يعرف مسبقًا أنها استنزفت كنوزها، ومع ذلك يواصل الحفر. وفي كل مرة كان يعثر على الإجابات ذاتها: الكلمات نفسها،

والآلام نفسها، والأسئلة نفسها التي تكررت حتى حفظها عن ظهر قلب. ومع ذلك لم يكن يمل، وكأن تكرارها يمنحه طمأنينة لا يجدها في مكان آخر.

ومع مرور الوقت لم تعد لقاءاتهما تشبه المواعيد المعتادة بين رجل وامرأة، بل تحولت إلى طقس غريب تتقاطع فيه روحان أنهكهما العالم. كان كل منهما يدخل إلى ذلك اللقاء مثقلًا بما تراكم عليه من غبار الأيام، ثم يخرج منه أخف وطأة مما كان. وكأن الكلام الذي يدور بينهما، مهما بدا عاديًا أو مكررًا، كان يؤدي وظيفة خفية؛ وظيفة التطهير من أدران الخوف، ومن بقايا الأحزان، ومن الأمراض التي تتركها الحياة في الأرواح دون أن يراها أحد.

أما زهرة فلم تكن تدرك تمامًا ما الذي يجعله يعود دائمًا، ولماذا يصر على البقاء قربها رغم كل ما عرفه عنها. لكنها كانت تشعر، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، أن هناك إنسانًا لا يحاول إنقاذها، ولا تغييرها، ولا الهرب منها، بل يكتفي بأن يجلس إلى جوارها ويصغي. وربما كان ذلك، في نظرها، شكلًا من أشكال الحب لم تتعلمه بعد.

ندّت عنها ضحكة تراوحت بين الصرامة والتردد، ضحكة قصيرة ومبتورة، كأنها خرجت من مكان بعيد داخلها ثم ندمت على خروجها في اللحظة نفسها. لكنها سرعان ما ابتلعت أنفاسها الصفراء بتمهل مريب، وأراحت ظهرها على الكرسي، ثم رفعت عينيها إليه وقالت:

«ماذا تريد؟»

ولم يكن ذلك سؤالًا موجزًا كما ظنه حبيبها المتحذلق، ولم يكن مجرد استفسار عابر يمكن الرد عليه بجملة أو جملتين، بل كان اختر اقًا حقيقيًا لكل الحصون التي ركّزها حول بحارها خلال العامين الماضيين. لقد اعتاد أن يتسلل إلى أعماقها من المداخل الجانبية، وأن يلتف حول جراحها بالكلمات المنمقة، وأن ير اقب انفعالاتها كما ير اقب عالم آثار مدينة غارقة، لكنه لم يتوقع قط أن تنقلب الأدوار بهذه الصورة وأن يجد نفسه فجأة في موضع المساءلة.

ولأول مرة منذ عامين، اتسعت عيناه فعلًا. لا دهشةً من السؤال نفسه، بل من الطريقة التي قيل بها. ولمعتا ببريق بورجوازي عتيق، بريق رجل اعتاد امتلاك زمام الحديث، فإذا به يفقده في لحظة واحدة. كان ذلك البريق يشبه لحظة انتشاء خمري راقٍ، لحظة يختلط فيها الارتباك بالمتعة، والخوف بالافتتان، حتى يعجز المرء عن التمييز بين ما يشعر به حقًا.

وبعد برهة قصيرة، بدت طويلة على نحو غير طبيعي، توقفت الأصوات عن السريان من الحناجر. لم تعد الضحكات المتناثرة تصل إلى الآذان، ولا أحاديث الزبائن المتداخلة، ولا وقع الأقدام فوق الأرضية الخشبية. حتى زقزقات الفناجين المعتقة بلون الغروب خمدت هي الأخرى، وكأن المطعم بأسره انزلق إلى جيب معزول من الزمن لا يخص أحدًا سواهما.

وفي ذلك السكون الغريب، توقفت زهرة عن كونها جثة متجمدة.

توقفت عن أداء ذلك الدور الذي أتقنته طويلًا؛ دور المرأة التي تتحدث عن مآسيها ببرود مؤلم، كأنها تسرد حكاية شخص آخر لا تربطها به أي صلة. توقفت عن كونها الكاتبة التي تحوّل جراحها إلى نصوص، وعن كونها الفنانة التي تخبئ نزيفها خلف لوحات البحر وألوان الغروب.

فللحظة واحدة فقط، شعرت بالغضب.

غضب لم يكن وليد تلك الجلسة، ولا وليد ذلك السؤال، بل كان حقدًا متراكمًا داخل صدرها منذ سنوات طويلة، ككتلة من الطين اللزج المتراصف على طول شريط حياتها البائسة. حقدًا تشكل من الخيبات الصغيرة قبل الكوارث الكبرى، ومن الكلمات التي لم تجد من يسمعها، ومن الليالي التي نامت فيها وهي تقنع نفسها بأنها بخير بينما كانت تتهاوى ببطء من الداخل.

شعرت بالغضب من أمها التي رحلت تاركة خلفها كل ذلك الخراب، ومن أخيها الذي اختار أن يهرب إلى موته الخاص بدل أن يبقى إلى جوارها. وغضبت من أبيها الذي ظل حاضرًا في غيابه أكثر مما كان حاضرًا في حياته، ومن عمها، ومن البحر، ومن ذلك البيت المطل على الساحل الذي ابتلع أفراد عائلتها واحدًا تلو الآخر حتى لم يبق فيه سوى الأشباح.

بل إنها شعرت بالغضب من نفسها أيضًا.

غضبت لأنها ظلت أعوامًا طويلة تحاول فهم الجميع قبل أن تحاول فهم نفسها. لأنها كانت تبحث عن الأعذار للناس جميعًا بينما لم تمنح نفسها أي عذر. ولأنها كلما اقتربت من الحقيقة وجدت سؤالًا جديدًا ينتظرها في نهاية الطريق.

ولهذا لم يكن سؤالها موجّهًا إلى الرجل الجالس أمامها وحده.

كان موجّهًا إلى الحياة كلها.

ماذا تريد مني؟

ماذا يريد الماضي؟

ماذا تريد الذكريات التي لا تموت؟

وماذا يريد أولئك الذين يقتربون منها ثم يصرّون على البقاء رغم أنهم يعرفون حجم الخراب الذي تحمله في داخلها؟

أما هو، فقد بقي صامتًا.

ولأول مرة منذ أن عرفها، شعر أن كل ما جمعه عنها من أسرار لا يساوي شيئًا أمام تلك اللحظة. لقد قرأ كتبها، وسمع اعتر افاتها، ور افقها في أكثر مراحلها هشاشة، ومع ذلك أدرك فجأة أنه لم يكن يعرفها حقًا. كان يعرف قصتها، نعم، لكنه لم يعرف النار التي ظلت مشتعلة تحت رماد تلك القصة طوال هذه السنوات.

ولهذا ظل ينظر إليها دون أن يتكلم، بينما كانت هي تنظر إليه بعينين متعبتين، كأنهما خرجتا للتو من حرب طويلة لم يُعلن أحد نهايتها.

انفجرت من وجهه الأبيض ضحكة عميقة وحالكة السواد. لم تكن ضحكة فرح أو ارتياح، بل بدت شرًا خالصًا خرج من مكان خفي في روحه، وكأنه أدرك أخيرًا أن فضوله المستديم حولها لم يكن سوى فخ مميت سار نحوه بإرادته، ثم انتحر فيه ببطء ودون مقاومة.

ومع ذلك لم يفقد هدوءه.

فببراءة غريبة، أو بما يشبه البراءة، مد يده إلى المنديل الأسود الموضوع إلى جانب فنجانه. كان منديلًا مطرزًا بعناية فائقة، وقد نُسجت في إحدى زواياه صورة لعصفور يحاول التحليق نحو السماء، غير أنه بدا وكأنه أخفق في ذلك، فتحطمت عظامه الرقيقة قبل أن يبلغ غايته. ولسبب لم تستطع تفسيره، ظلت زهرة تحدق في ذلك العصفور للحظات، كأنها رأت فيه شيئًا تعرفه جيدًا.

أما هو فمسح أصابعه الطويلة المتخشبة ببطء، ثم أعاد المنديل إلى مكانه، ورفع رأسه نحوها.

كانت عيناه هادئتين على نحو مريب.

وقال كلماته بإتزان مبالغ فيه، كأنه يقف أمام عدو لا أمام امرأة أحبها، وكأن كل كلمة يختارها بعناية قبل أن يطلقها، لا ليوضح ما يشعر به، بل ليفترس بها نقطة ضعف خفية.

»بدايةً، لم أتوقع أن تكوني جادة«.

ثم صمت لحظة قصيرة قبل أن يتابع:

»بعد كل هذه المواعيد، وبعد كل تلك السنوات التي قضيتها إلى جوارك، ظننت أن هذا السؤال مجرد مناورة أخرى منك. للحظة شعرت أنك تصوبين نحوي نيرانًا من الغضب المرير، و أنك أخيرًا قررت محاسبتي على كل شيء«.

واستقرت عيناه في عينيها مباشرة.

»لكن ما أريده حقًا لم يتغير يومًا«.

توقفت أصابعه عن الحركة، وخفتت تلك الابتسامة الغامضة التي كانت عالقة على وجهه.

»أريد الزواج بك«.

خرجت الجملة هادئة، بسيطة، وخالية من الزخارف، حتى بدت أكثروقعًا من أي خطاب طويل كان يمكن أن يلقيه.

ثم أضاف، بعد أن تنهد ببطء:

»ولأنك كنت دائمًا ترفضين، أصابتني خيبة أمل أكبر مما تتصورين. كنت أخرج من كل لقاء مقتنعًا بأنني اقتربت خطوة، ثم أكتشف أن المسافة بيننا ما زالت كما هي. كنت أظن أن الوقت سيقنعك، وأن الاعتياد سيهزم مخاوفك، و أنك ستتعبين في النهاية من الهرب«.

وأطرق برأسه قليلًا، ثم عاد ينظر إليها.

»أما الآن... فهذا التحول يبدو لي معجزة«.

ولأول مرة منذ بداية الجلسة، لم يكن في صوته شيء من المراوغة أو التلاعب. بدا كأنه رجل أمضى سنوات طويلة يطارد بابًا مغلقًا، ثم فوجئ بأن الباب تحرك أخيرًا، لكنه لم يجرؤ بعد على تصديق أن الطريق قد فُتح أمامه فعلًا.

قالت زهرة بصوت أنثوي غير مألوف:

— وماذا لو لم أتزوجك؟ ماذا ستفعل؟ هل ستظل ملتصقًا بي إلى الأبد؟

فأجاب بصوت مترنم هادئ:

— إلى الأبد؟ تلك رحلة شاقة، لكنها تستحق.

عندها نهضت زهرة من على الكرسي ببطء، ثم أنزلت شعرها الطويل على كتفيها، وكأنها تتخلص من قيد خفي ظل يثقلها طوال تلك السنوات. وما إن التقت عيناه بعينيها حتى لمعت فيهما شرارة قاتلة، شرارة لم يرها من قبل إلا في أكثر لحظات حياتها اضطرابًا.

ثم، ودون سابق إنذار، رفعت يدها وصفعته.

تلتها صفعة أخرى.

ثم أخرى.

وتوالت الصفعات الواحدة تلو الأخرى، حتى بدا كأنها لم تعد تتنفس، بل كانت تفرغ في وجهه أعوامًا كاملة من الغضب والخذلان والأسئلة التي ظلت عالقة داخل صدرها دون جواب.

ومع ذلك، لم يتحرك.

لم يحاول أن يصد يدها، ولم يغضب، ولم يبدُ عليه أدنى أثر للإهانة.

بل على العكس، كان يبتسم.

وكانت ابتسامته تخرج من أعماق أحشائه، ابتسامة غريبة توحي بأنه سعيد بهذا التحول العدواني الذي طرأ عليها، وكأنه انتظر طويلًا أن يرى هذا الوجه الحقيقي المختبئ خلف هدوئها المعتاد وصمتها الطويل.

وحين انتبه أحد الجالسين إلى ما يحدث، أسرع نحوهما محاولًا التدخل وإيقاف زهرة، غير أن الرجل أومأ إليه برأسه في هدوء، مشيرًا له بالتراجع.

فتوقف الرجل في مكانه.

أما زهرة، فلم تتوقف.

كانت تضربه وكأنها تحاكمه، أوربما تحاكم العالم كله من خلاله، بينما ظل هو واقفًا أمامها، يتلقى غضبها بصبر غريب، وابتسامته السوداء لا تفارق وجهه.

وعندما إنتهت منه، جلست بكل تألق، وكأنها إستعادت رشدها دفعة واحدة بعد تلك العاصفة العنيفة التي إجتاحتها. ثم ملأت وجهها الوردي بإبتسامة عذبة وهادئة، حتى بدا كأنها أخيرا تنفست الصعداء بعد سنوات

طويلة من الإختناق. كانت تجلس أمامه في ثبات غريب، بينما أنفاسها بدأت تستعيد إيقاعها الطبيعي شيئا فشيئا، وكأن كل صفعة وجهتها إليه كانت تقتلع حجرا من صدرها.

ثم صادفت عيناها وجهه.

كان سيل من الدماء الساخنة قد شق طريقه على طول بشرته البيضاء، وتجمعت قطرات حمراء عند ذقنه وعنقه، إلا أنه لم ينتبه إلى شيء من ذلك. لم يكن منشغلا بدمائه ولا بالألم الذي يفترض أن يشعر به، بل كان مأخوذا بعينيها فقط.

بعينيها النابضتين بالإنسانية.

وكأن كل ما حدث قبل لحظات لم يكن سوى محاولة يائسة لإعادتها إلى الحياة.

فقال وهو يحدق فيها بإهتمام بالغ:

— هذا مثير... لقد أصبحت إنسانة بحق يا زهرة، ويجب أن تعتادي على هذا الشعور، لأنه حقا مفيد لك.

ولم تكن كلماته عابرة كما قد تبدو للغرباء. لقد كان يعلم جيدا أنها عاشت زمنا طويلا في فترة من الركود المميت، وأنها كانت تتصنع الإنسانية أكثر مما تعيشها. كانت تبتسم عندما ينبغي لها أن تبتسم، وتتحدث عندما ينبغي لها أن تتحدث، وتحاول أن تخضع لروتين الحياة الرتيب كما يخضع الجميع، غير أن شيئا عميقا داخلها كان قد توقف منذ سنوات.

ولذلك لم تكن إبتسامته إبتسامة شماتة أو إنتصار.

بل كانت إبتسامة طمأنينة.

كان يعرف في قرارة نفسه أنها لو بقيت واهنة أمام هذا الحطام الهائل الذي تراكم فوق روحها، ولو واصلت دفن غضبها وأسئلتها وأوجاعها في الأعماق، لزجت بنفسها ذات يوم في مصحة عقلية أو في عزلة لا عودة منها.

أما الآن، فقد رآها تثور.

ورآها تغضب.

ورآها تؤذي.

ورغم قسوة المشهد، فقد رأى في ذلك كله علامة حياة.

ساد الصمت بينهما لبرهة قصيرة، بينما كانت الأصوات من حولهما تعود ببطء إلى المقهى، وكان المارة يسترقون النظر إليهما في حيرة، غير أن أيا منهما لم يهتم بشيء مما يجري حوله.

وعندئذ، وبعد كل هذا الإضطراب، وبعد كل ذلك الغضب الذي إنفجر منها دفعة واحدة، رفعت زهرة رأسها ونظرت إليه مباشرة، ثم قالت بهدوء مفاجئ:

— أنا مو افقة على الزواج منك.

بعد تلك اللحظة، لم تعد زهرة نفسها التي كانت تصارع اضطرابات الحياة، كما لم يعد حبيبها، المتأثر بأصوله الغربية، قادرًا على مصافحة هذا الهذيان بوجه مازح.

فقد تغيّر شيء مهم في صميم هذا الثنائي؛ إذ لم يكن حفل الزواج حافلًا كما توقعته زهرة، ولم يكن مشوقًا كما توقعه فارس. ذلك أن الزواج، في نهاية الأمر، ليس سوى جملة من التقاليد الإنسانية المتعارف عليها، وتكمن مهمة هذه التقاليد في حفظ ماء وجه كل من يقدم على خوضها. ففي الأخير، يعد الزواج مرحلة من مراحل استكمال الدورة الإنسانية، بل إن مكانته ترتبط بمكانة الإنسانية نفسها.

غير أن هذا الزواج لم تتماسك قوته طويلًا، فبعد قرابة شهرين فقط، وأمام مائدة تعج بألوان شتى من الأطعمة الفاخرة، في بلدة نرويجية ريفية تتميز بطابعها العفوي ورائحة الحياة البدائية، جلست زهرة في طور من الركود التام؛ لا حركة، ولا تفاعل، ولا ابتسامة، وإنما مجرد تصفح بارد للوجوه المحيطة بها.

وفي المقابل، كان زوجها يجلس إلى جانبها، ممسكًا بيديها بعناية فائقة، كأنه استشعر في قرارة نفسه أن زهرة ستفجر الأجواء بصمتها بعد لحظات. ومع

ذلك، كان الجميع مستغرقًا في المتعة، متعة آلمت زهرة كثيرًا؛ لأنها كانت تحمل نكهة عائلية فقدت طعمها منذ أمد بعيد.

أما شعرها الأسود الطويل، وعيناها الغارقتان في لون الغروب، فقد كانا غارقين بدورهما في مستنقع من الشرود. كانت تهز الشوكة التي بيدها تارة، ثم تعيدها إلى مكانها تارة أخرى، وكأنها تبحث عن شيء لا تستطيع الإمساك به. غير أن ذلك لم يكن كافيًا لانتشالها من غيابها الداخلي.

وفجأة، هدأ المكان على إثر حوار مباغت من أم فارس. كانت توجه كلامها إلى زهرة مباشرة، لكن زهرة لم تكن تستمع إليها في الحقيقة؛ إذ كانت غارقة في تأمل ثوبها الأبيض، وجسدها الهزيل، وقامتها القصيرة، وعينيها المنحدرتين في السواد.

كانت تتلاشى ببطء وسط هذه المتعة الجماعية، وكأنها تقف خارجها لا داخلها، وكأن الجميع يحتفل بشيء لم يعد يعنيها. وبينما كانت الوجوه من حولها تزداد إشراقًا بالحياة، كانت هي تنسحب أكثر فأكثر إلى أعماقها، رغم أنها ما تزال في السادسة والعشرين من عمرها.

وفجأة نهضت زهرة برتابة مفرغة، كأنها ستفترس أحدًا بنظراتها الشيطانية. راحت تتأمل الحاضرين بخوف تام، لا بخوف منهم، و إنما بخوف من ذلك الشيء الذي كان ينمو في أعماقها بصمت، ثم يطل برأسه كلما ظنت أنها نجحت في دفنه. كانت الوجوه من حولها تتحرك بصورة طبيعية، وكانت الضحكات تتناثر فوق المائدة كأن شيئًا لم يكن، إلا أنها كانت تشعر بأن العالم كله أصبح بعيدًا عنها، بعيدًا إلى درجة أنها لم تعد قادرة على لمسه أو الانتماء إليه.

ثم اعترتها رجفة خاطفة في قلبها، فأصبح متسارعًا يضرب أصداء صدرها الصدئ بعنف. وكان ذلك الصدر يحمل فوقه سنوات طويلة من الخسارات والانكسارات والذكريات التي لم تجد طريقها إلى النسيان. غير أن قطرات العرق التي تصببت من جبينها كانت أكثر رعبًا من دقات قلبها، لأنها كانت تشهد على معركة خفية لا يراها أحد سواها.

أجفلت عينيها للحظة، ثم ثبتتهما على طفلة صغيرة جالسة بجوار أمها.

كانت ابنة أخ فارس.

صغيرة لدرجة أنها ستتهشم إن اقتربت منها قليلًا، أو هكذا خيل لزهرة. كانت تضحك ببراءة مطلقة، وتلوح بيديها الصغيرتين في الهواء، كأنها لا تعرف شيئًا عن هذا العالم المليء بالهزائم. غير أن رائحتها كانت تستفز زهرة بصورة غامضة، رائحة الحياة الجديدة، رائحة البداية، رائحة كل شيء فقدته زهرة منذ زمن بعيد ولم تعد قادرة على استعادته.

ولذلك حملت السكين الذهبي المطعم بلون الخيانة الفظيعة.

كانت يدها ثابتة على نحو مخيف، بينما كان داخلها ينهار قطعة بعد قطعة.

فقد كانت زهرة، بعد تلك المدة، تشعر بالخيانة لمجرد أنها استمتعت بالحياة. كانت ترى في كل لحظة هدوء نوعًا من الغدر بماضيها، وفي كل ابتسامة اعترافًا ضمنيًا بأنها نجت، بينما هناك أشياء كثيرة داخلها لم تنجُ قط.

لقد ألبست نفسها ثوب الملائكة الطاهرة طويلًا، وحاولت أن تتصرف كما ينبغي للإنسان السوي أن يتصرف، وحاولت أن تصدق أن بإمكانها أن تبدأ من جديد، وأن الزواج قادر على إصلاح ما أفسدته السنوات. لكنها، وسط كل ذلك اللهيب المتصاعد، كانت تقنع نفسها بأنها ليست مريم العذراء.

إنها لن ترتقي إلى أن تكون صالحة.

لن تبلغ ذلك الصفاء الذي يتحدث عنه الناس بإعجاب.

ولن تتطهر من كل هذا السواد المتدفق نحو روحها.

ولهذا كانت تئن وهي تقترب من الفتاة.

لم يكن الأنين مسموعًا، لكنه كان يمزق أعماقها.

وعندها انجذبت أنظار الجميع نحو الطفلة الصغيرة بهلع مميت، كأنهم أدركوا فجأة حجم الاندفاع الذي يسكن زهرة. لم يفهموا ما الذي ستفعله بالضبط، لكنهم شعروا بأن شيئًا مرعبًا يقف على حافة الوقوع.

أما الهالة المنبعثة منها فقد بدت ثقيلة إلى درجة جعلت المكان كله يفقد دفأه.

وكان المدهش أن فارس لم يتحرك.

ظل جالسًا في مكانه.

لم يصرخ.

لم يندفع نحوها.

لم يحاول أن ينتزع السكين من يدها.

بل اكتفى بالنظر إليها.

وكان هذا السكون منه أكثر إخافة من أي رد فعل آخر.

هربت الأم والفتاة، و أفرغ الجميع مقاعدهم بسرعة مرتبكة، ثم اتجهوا نحو المنزل وهم يلتفتون إلى الخلف بين لحظة وأخرى.

وخلال دقائق قليلة لم يبق في المكان غيرزهرة وفارس.

عندها فقط التفتت زهرة إليه.

ونظرت إلى يده الممتلئة بالجروح.

كانت تعرف هذه اليد جيدًا.

تعرف كل أثرفوقها.

تعرف كم مرة تحولت تلك اليد القوية إلى محطة تستنزف فيها مشاعرها وغضبها وانهياراتها.

كان فارس دائمًا هناك.

دائمًا في المكان الذي تفرغ فيه ثقل روحها.

ودائمًا يدفع الثمن دون أن يطالبها بشيء.

وظلت تنظر إلى تلك اليد طويلًا، كأنها تراها للمرة الأولى.

ثم سمع صوت سقوط السكين على الأرض الخضراء.

كان صوتًا بسيطًا.

إلا أنه بدا في تلك اللحظة كأنه نهاية معركة طويلة.

وبعدها جلست زهرة بطريقة مهذبة على نحو غريب، حتى إن المشهد كله بدا غير قابل للتصديق.

جلست وكأن شيئًا لم يحدث.

وكأنها لم تكن منذ لحظات قليلة تقف على حافة هاوية سحيقة.

ثم رفعت يدها نحو فارس.

وأمسكت بشعره.

كانت تمسكه بلطف وعناية، بل بذلك النوع من الحنان الذي لا يظهر إلا بعد إرهاق شديد.

وكانت أصابعها تمر بين خصلاته ببطء، كأنها تحاول التأكد من أنه ما يزال موجودًا.

وهذا بالذات ما جعل الأمر مريبًا لفارس.

فقد اعتاد غضبها.

واعتاد قسوتها.

واعتاد صمتها الطويل.

أما هذا الهدوء، وهذا اللطف المفاجئ، فلم يعرف له تفسيرًا.

ظل ينظر إليها غير مصدق.

وكانت عيناه تدرسان وجهها كما لو أنه يراه لأول مرة.

أما هي فبدت منهكة بصورة لا توصف، منهكة إلى درجة أن غضبها نفسه لم يعد قادرًا على الوقوف.

وعندها فقط راود فارس السؤال الذي لم يستطع طرده من ذهنه:

كيف هدأت بمفردها؟

في ذلك الحين، كانت زهرة قد بلغت السادسة والعشرين من عمرها؛ فقد وُلدت سنة 1986، وهي سنة مريبة في ذاكرة من يعرف أغوارها السحيقة. لم يكن ذلك العام عابرًا في حياة أمها النحيلة، بل بدا كأنّه نذير شؤمٍ حلّ بها قبل أن ترى طفلتها النور. فلم تلدها وهي في غمرة من السعادة، ولم تستقبل قدومها بفرح الأم التي تنتظر اكتمال حياتها في وليدها؛ بل ظلّت تلعنها حتى خرجت من أحشائها، ممدّدة بين ذراعي أبيها المذعور.

كان يومًا ممطرًا، شديد السواد، وكانت الوجوه المصطفّة حولها تتلو كلماتٍ مصطنعة، باردة، كأنّها قطع قاسية لا روح فيها. أمّا زهرة، فقد كانت تتنفّس ببطء، حتى ليُخيّل أنّ أنفاسها تُسمع من وراء جدران المنزل. ثم صرخت؛ صرخة الحياة نفسها، كأنّها لم تعد تطيق المكوث في رحم ذلك العبوس، وكأنّها أعلنت، منذ لحظتها الأولى، رفضها الصامت لذلك العالم الذي استقبلها بكلّ هذا الجفاء.

غير أنّ زهرة لم تكن تعلم أنّ ذلك اليوم، الذي خرجت فيه إلى الحياة محاطةً باللعنات، سيعود بعد أعوام ليعيد ترميم أنقاضه داخل حياتها الجديدة؛ لا في صورة ذكرى فحسب، بل في صورة تجربة ستجد نفسها مضطرّة إلى مواجهتها من جديد. فقد حملت ابنها الوحيد في أحشائها، وكانت تلك الأحشاء، التي يفترض أن تكون مأوى للحياة، مثقلةً بمرضٍ لم يكن عارضًا، ولا وجعًا ينقضي بانقضاء أيامه؛ بل كان أشبه بلعنة البقاء في حجرة مزدحمة بتعابير السعادة، حيث يفرح الجميع بما هو آتٍ، بينما تعجز هي عن مشاركة أحدهم ذلك الفرح.

كانت زهرة تعرف، في قرارة نفسها، أنّ اضطرابها قد بلغ حدًّا مخيفًا، ومع ذلك تشبّثت بذلك البرعم الصغير، كأنّها وجدت فيه آخر ما يمكن أن تتعلّق به من حياة، وكأنّها أرادت أن تنقذ ما تبقّى منها بأن تحميه من كلّ ما عجزت هي عن النجاة منه. لم تكن الأمومة عندها مجرّد انتظار لطفل، بل كانت، في موضعٍ خفيّ من روحها، محاولةً لاستعادة شيء ضاع منها قبل أن تعرف كيف تسمّيه.

أمّا فارس، فقد كان يبلغ التاسعة والعشرين من عمره في ذلك العام، وكان قد أوشك، حين أنجبت زهرة، على بلوغ عتبة الثلاثين. وقد بدا ذلك اليوم غائمًا بعض

الشيء، رتيبًا إلى حدّ الملل، على الرغم من أنّ الجميع كانوا متلهّفين لرؤية الصغير القادم. لكنّ فارس، الذي عرف زوجته طويلًا، كان يدرك أنّ زهرة لم تكن تشاركه ذلك الحماس؛ فقد كانت تتنهّد مع كلّ كلمة تلتقطها أذناها، وكأنّ أصوات المحيطين بها تثقل عليها أكثر ممّا تطمئنها. لم تكن تتناول من الطعام ما يكفي، ولم تكن تبدو مستعدّة لاستقبال ذلك الفرح الذي اجتمع الناس حولها من أجله.

ولم يكن فارس، بدوره، قد بقي ذلك الرجل المتفهّم دائمًا، المنفتح على شخصيتها المتبعثرة، والقادر على احتواء ما لا يستطيع تفسيره؛ فقد بدأ هو الآخر يفقد قدرته على فهم ما بها. ولعلّ ما كان يراه اضطرابًا عابرًا لم يكن كذلك في الحقيقة، غير أنّه لم يعد يعرف من أين يبدأ، ولا كيف يقترب منها دون أن يزيد المسافة بينهما اتّساعًا.

ثم جاءت تلك الليلة التي لم تشبه سواها.

استيقظت زهرة وهي تئنّ من الألم؛ ألمٌ حارق، سرى تحت تأثيره الاضطراب في كلّ ركن من أركان الغرفة النائمة، حتى بدا كأنّ الجدران نفسها قد انتفضت من سكونها. وانفتحت النوافذ على نحوٍ غريب، فيما استيقظ فارس ليجد زوجته غارقةً في بحرٍ من الهلع، لا تكاد تشبه المرأة التي عرفها من قبل. كانت تتلوّى من شدّة ما ألمّ بها، كأنّها جثةٌ تقاوم الموت نفسه، وتدفع بجسدها نحو جحيمٍ لا تعرف له بابًا ولا نهاية.

اختنقت زهرة بألمها الحانق؛ ذلك الألم الذي كرهت معناه وفحواه، حتى خُيّل أنّها لم تكن تريد أن تصرخ لأنّها تتألّم فحسب، بل لأنّها تمقت وجوده في جسدها، وترفض أن يكون لها نصيب من وجعه. لم يكن الألم عابرًا في إحساسها، بل بدا كأنّه شيء غريب اقتحمها واستقرّ فيها رغمًا عنها، شيء تريد أن تنتزعه من أعماقها قبل أن ينتزع منها ما تبقّى من قدرتها على الاحتمال.

وفي تلك الأثناء، بدأ الطفل ينحشر في طريقه إلى الحياة، يتقلّب داخل رحمها ويرتدّ مع اضطراب حركتها المباغتة، بينما كانت زهرة تتلوّى تحت وطأة الألم،

عاجزة عن العثور على وضع يخفّف عنها حدّته. أمّا فارس، فقد سارع إلى الاتصال بالإسعاف، ثم أخذ يتصل بأفراد عائلته واحدًا تلو الآخر؛ لم يترك شخصًا يعرفه إلا وألقى إليه بخبر تلك اللحظات المضطربة، قبل أن يعود إلى زهرة بوجه شاحب وتعابير مرتبكة، كأنّه يبحث في ملامحها عن إجابة لا يملكها.

لقد كانت تلد بالفعل.

ولم يكن الوقت يتّسع لانتظار النجدة؛ فقد وجدت نفسها أمام لحظة لا تقبل التأجيل، وكان عليها أن تضع طفلها وسط وطأة ذلك التوتر المميت، فيما راحت المسافة بين الألم والهلع تضيق شيئًا فشيئًا. تعالت صرخاتها، وامتدّ صداها إلى أرجاء المنزل، ثم تجاوز جدرانه حتى بلغ مسامع الجيران.

وسرعان ما بدأت الأيدي تطرق الباب بعجلة. كانت جارتان مسنّتان تسكنان بجوار المنزل الذي اشتراه فارس لتقضي فيه زهرة وقتها بعيدًا عن ضوضاء المدينة. وقد أفزعتهما الأصوات المتلاحقة، فهرعتا نحو الباب تحاولان معرفة ما يحدث في الداخل.

أمّا زهرة، فلم ينقطع صراخها؛ بل أخذ يتغيّر شيئًا فشيئًا، حتى لم يعد مجرّد صوت يفضح شدّة الألم، وإنما تحوّل إلى رجاء مرعب، رجاءٍ يتعالى من أعماق امرأة وجدت نفسها وحيدة أمام لحظة أكبر من قدرتها على الاحتمال.

التهم الوقت المتسارع ما تبقّى من صبرها المتهالك، وأخذت الدقائق تنفلت من بين أيدي الجميع، بينما كانت زهرة تئنّ كحيوان أخرس، لا يعرف من المناجاة غير ذلك الشجن المنبعث من أعماق أحشائه. لم يكن صوتها يشبه الكلام، ولا حتى الصراخ الذي اعتاده الناس؛ كان صوتًا غريزيًا محضًا، يخرج منها دون إرادة، كأنّ الألم قد استولى على لغتها ولم يُبقِ لها وسيلة للتعبير سواه.

أدخل فارس الجارتين إلى الغرفة، وكان الخوف يتساقط عنه مع كل خطوة، حتى بدا كأنّه يسير نحو مصيبة لا يعرف كيف يوقفها. راحت الوجوه تتراءى حول زهرة من كل جانب، وجوه مرتبكة، شاحبة، لا تعرف أين تقف ولا ماذا تفعل؛ وكأنّ

الحاضرين لم يكونوا يشهدون ولادة إنسانة، بل يحضرون عرس الشياطين نفسه، حيث اختلطت الأصوات بالهلع، وغابت عن المكان كلّ ملامح الطمأنينة.

لم يتبقّ وقت كثير على مجيء الطفل، ومع ذلك ظلّ الجميع في حيرة؛ فالإسعاف لم يصل بعد، وفارس لا يعرف كيف يتصرّف، والجارتان تحاولان استيعاب ما يحدث أمامهما. أمّا زهرة، فقد كانت قد بلغت من الألم حدًّا لم يعد معه الانتظار احتمالًا ممكنًا.

وفجأة، صرخت بكلّ ما بقي في قلبها من حياة بائسة، وأشارت بصرختها إلى فارس، كأنّها تنتشله من ارتباكه وتأمره بأن يفعل شيئًا، أيّ شيء.

 فارس! أحضر الماء الساخن، سألد هنا!

تلاشت ملامح فارس للحظة، وبقي ينظر إليها كأنّه لم يستوعب ما سمعه. ثم أعاد النظر إليها بشيء من الغموض والتردّد، وسألها:

 هل أنتِ متأكدة؟

فالتفتت إليه، وأطلقت صرخة أشدّ شراسة من سابقتها:

 هل أنا في وضع يسمح لي بالتأكّد؟ أريد أن ألد هذا الشيء، والآن!

لم يجد فارس ما يقوله. كانت كلماتها قد قطعت ما تبقّى من تردّده، فاستدار مسرعًا نحو الباب، بينما ظلّت الجارتان إلى جوارها، تحاولان تهدئتها ومساندتها. أمّا زهرة، فقد عادت تقبض على حافة السرير، وقد استقرّ في عينيها إصرار غريب؛ لم يكن إصرار امرأة تنتظر طفلها بشوق، بل إصرار إنسانة تريد أن تنتهي هذه المحنة، وأن تخرج من جسدها تلك اللحظة التي لم تعد تحتمل البقاء فيها.

تنهدت زهرة من هول الألم، واصفرّت ملامحها الباردة فجأة، كأنّ شيئًا من الحياة قد انسحب من وجهها وتركه لمواجهة ذلك الوجع العاري. ثم فقدت وعيها للحظة، قبل أن تستفيق على نحوٍ مضطرب، كأنّها عادت من مكان بعيد لا تعرف كيف

وصلت إليه، ولا كيف استطاعت الرجوع منه. كانت تضحك، ثم تبكي، ثم تصرخ من الألم؛ تتقلّب بين هذه الحالات دون أن تستقرّ على واحدة منها، وكأنّ جسدها قد صار مسرحًا لصراع لا تملك فيه من أمرها شيئًا، غير أن تقاوم.

وفي خضمّ تلك التحوّلات، انتبهت الجارتان إلى أنّ الطفل بدأ في النزول بالفعل. كان رأسه الأبيض الناعم يظهر شيئًا فشيئًا، في مشهد اختلط فيه الخوف بالدهشة، والرهبة بذلك الصمت الثقيل الذي يسبق وقوع الأمور العظيمة. أمّا فارس، فقد كان في تلك الأثناء يسابق رجفان قلبه، كأنّ المسافة بينه وبين الغرفة لم تكن مسافة خطوات، بل مسافة عمر كامل من الخوف. وحين بلغها، كان جبينه مغطّى بالهلع، وعيناه تبحثان عن شيء لا يعرف كيف يسمّيه.

نظر إلى رأس الطفل، فما لبثت ركبتاه أن انثنتا، وانهار إلى الأرض. لم يكن سقوطه من تعب الطريق، ولا من طول الانتظار، بل من هول ما رأى؛ فقد بدا له أنّ الحياة، في تلك اللحظة، تضع أمامه سرًّا أكبر من قدرته على الاحتمال.

وفيما كانت الجارتان تحيطان بزهرة، وتحاولان مساعدتها على الاستلقاء في وضعية مناسبة، كانت هي غارقة في هلاوسها، بعيدة عن الغرفة على الرغم من أنّ جسدها لم يغادرها. كان الألم ينهش وعيها، ويشدّها إلى حدود لا تكاد تطيقها، ومع ذلك ظلّت تقاوم، كأنّ في داخلها إرادة لا تعرف الاستسلام، أو كأنّها كانت قد تعلّمت، في مكان ما من حياتها، أنّ عليها أن تصمد حتى حين لا يبقى في الصمود ما يُغري به.

انتبهت إحدى الجارتين إلى أنّ الألم المتصاعد كان يقبض على رحمها بقوة مخيفة، فتقدّمت لمسايرة الوضع، بينما وضع فارس الماء إلى جانب السرير، متردّدًا بين رغبته في المساعدة وعجزه عن فهم ما ينبغي فعله. أخذت الجارة الماء الساخن، وانشغلت بما تقتضيه اللحظة، أمّا زهرة، التي كان يُنتظر منها أن تصرخ، وأن تستنجد، وأن تطلق ما في صدرها من وجع، فقد فعلت شيئًا لم يتوقّعه أحد.

كانت تغنّي.

نعم، كانت تغنّي بصوت عذب رقيق، كأنّ الألم لم يبلغها، أو كأنّه بلغ منها مبلغًا جعلها تتجاوز الصراخ إلى الغناء. كان صوتها خافتًا، متقطّعًا أحيانًا، لكنه ظلّ يحمل تلك الرقة الغريبة التي تشبه همس الذين يخاطبون السماء، أو الذين يودعون أسرارهم الأخيرة في أذن لا يراها أحد. بدت كأنّها تهمهم للملائكة، وتخبرها بذلك السرّ الذي صنع منها ما هي عليه، وبذلك الحزن القديم الذي لم يجد له يومًا موضعًا يستريح فيه.

وكانت تقول:

«لون البحر ليس أزرق يا أبي، بل هو لون من ألوان الجنّة.
أنت البحر، وأنا صدفة صغيرة يا أبي.
لماذا ذهبت بعيدًا، بعيدًا نحو السماء، دون أن ترحّب بصدفتك يا أبي؟»

لم تكن الكلمات مجرّد أغنية تُقال في لحظة ألم؛ لقد كانت عودة إلى مكان قديم في روحها، إلى طفلة ظلّت تنتظر أبًا غاب عنها، وإلى سؤال لم تنجح السنوات في إسكاته. كان البحر في حديثها أكبر من الماء، والصدفة أبعد من كونها شيئًا صغيرًا على الشاطئ؛ كانا صورتين لحياة كاملة، لحبّ لم يكتمل، ولغياب ظلّ حاضرًا حتى في أشدّ لحظات الحضور.

وهكذا مرّت تلك الليلة، بين أنفاس متقطّعة وقلوب معلّقة، حتى وُلد الطفل سليمًا. غير أنّ فارس، على الرغم من سلامة المولود وانتهاء الخطر، لم يستطع أن يخرج من تلك الغرفة كما دخلها. فقد بقيت كلمات الأغنية معلّقة في ذهنه، لا تفارقه، كأنّ زهرة لم تكن تغنّي لطفلها وحده، بل كانت تفتح أمامه بابًا إلى عالم لم يعرفه عنها من قبل.

كان يردّدها تارة في نفسه، ويشدو بها تارة أخرى أمام الطفل الصغير، كأنّه يحاول أن يحفظ ما عجز عن فهمه، أو أن يعيد إلى الغرفة شيئًا من صوتها بعدما سكن. وكان الطفل يشبه زهرة على نحوٍ حزين؛ في ملامحه شيء منها، وفي صراخه شيء من صراخها، حتى خُيّل إلى فارس أنّ الحياة قد أعادت إليه صورتها في

هيئة أخرى، أصغر سنًّا، وأشدّ حاجة إلى الحنان.

وللحظة، أدرك فارس أنّه كان أضعف منها، على الرغم من كلّ المرّات التي كشفت فيها له جانبها الهشّ، وعلى الرغم من كلّ ما ظنّ أنّه يعرفه عنها. فقد كان يرى انكسارها، ولا يرى دائمًا ما يتطلّبه منها الوقوف بعده؛ وكان يشهد حزنها، دون أن يدرك كم من الحزن استطاعت أن تحمله في صمت. أمّا الآن، وقد رآها في تلك الحال، فقد عجز عن احتمال حتى رؤيتها نائمة.

كان ينظر إليها، فيجد السكون على وجهها أشدّ إيلامًا من صراخها، ويشعر أنّ النوم قد أخذ منها شيئًا لا يستطيع استعادته. ثم كان يضمّ الطفل إلى صدره ويقبّله، وتنساب دموعه دون أن يجد لها تفسيرًا واضحًا؛ أكان يبكي خوفًا عليها، أم شفقة على الطفل، أم حزنًا على كلّ ما لم يعرفه عن المرأة التي كانت أمامه طوال ذلك الوقت؟

لقد كان يشعر بها، نعم، يشعر بألمها وبما تركه الماضي في روحها، غير أنّ ذلك الشعور، على شدّته، جعله للحظة ينسى من تكون زهرة حقًّا. نسي أنّها ليست مجرّد امرأة تتألّم، ولا مجرّد أمّ خرجت من ليلة عسيرة، ولا وجهًا أرهقه الوجع حتى استسلم للنوم؛ إنّها تلك الإنسانة التي سبقت هشاشتها قوّتها، وسبقت دموعها قدرتها على الاحتمال، والتي حملت في داخلها عالمًا كاملًا لم يكن فارس قد عرف منه إلا أطرافًا متفرّقة.

وهكذا، بينما كان الطفل يصرخ في حضنه، وكانت زهرة تستريح في صمتها، ظلّت أغنيتها تتردّد في رأسه. ولعلّه فهم، في تلك الليلة، أنّ الإنسان لا يُعرف بما يظهر منه وحده، وأنّ أكثر الوجوه هدوءًا قد تخفي وراءها حكايات لا تسعها الكلمات. لقد وُلد طفل في تلك الليلة، لكنّ فارس شعر أنّ شيئًا آخر قد وُلد معه: معرفة جديدة بزهرة، معرفة جاءت متأخّرة، بعد أن رأى من ألمها ما لم يكن مستعدًّا لرؤيته، وبعد أن أدرك أنّ المرأة التي ظنّها قريبة منه كانت تحمل في داخلها مسافات لم يقطعها معها قط.

عاشت زهرة حياةً واقعية أكثر مما ينبغي، وتألمت أكثر مما ينبغي، حتى إنها أفرطت في كراهية ذاتها، لأسباب كثيرة لم تكن مقتصرة على أحداث الماضي فحسب، بل تجاوزتها إلى ذلك السؤال العالق في ثنايا تفكيرها المتواصل.

كانت مجبرة على الاستمرار في طرحه، تلحّ عليه وتعود إليه، رغم علمها باستحالة العثور على جواب يشفي حيرتها. وكأنها لم تكن تبحث عن إجابة بقدر ما كانت عاجزة عن التوقف عن السؤال؛ إذ إن بعض الأسئلة لا يولد من الرغبة في المعرفة وحدها، بل من عجز النفس عن التصالح مع ما حدث لها.

كانت تعلم أن فارس ليس الرجل المثالي. صحيح أنه يظهر أحيانًا بمظهر فروسيّ متقن، غير أنه، في نهاية الأمر، إنسان لا يعرف من المشاعر الإنسانية إلا ما لُقّن إياه، وما استطاع أن يتعلّمه بالمحاولة والخطأ. كان مبتدئًا في الحياة، ولعله، حتى بعد هذا الشوط الطويل من الأحداث، ما يزال متعثرًا في طريقه إلى بلوغ جنة زهرة.

لم يكن واعدًا بما فيه الكفاية، ولم يكن ذلك الإنسان الذي تستطيع أن تسلّم إليه قلبها دون أن تتوجّس من عواقب الأمر. بل لم يكن، في جوهره، إلا إنسانًا جامحًا مثلها، يحب الألم المنكسر، ويتطرّق إلى احتوائه، رغم معرفته بعواقب اقتراف ذلك الجرم. وكأنهما، على اختلاف طباعهما، يلتقيان عند نقطة واحدة: كلاهما يعرف أن بعض الطرق تؤذي سالكها، ومع ذلك لا يكفّ عن ارتيادها.

وليس من السهل على الإنسان أن يفطر قلبه بسبب شيء قد يبدو تافهًا في نظر الآخرين، كما أنه ليس من المستحيل أن يحدث ذلك. فالحوادث الصغيرة التي تفاجئنا، وتلك التفاصيل التي نعبرها أحيانًا دون أن نمنحها أهمية تُذكر، قد تترك في النفس بقعًا لا تزول، وفجوات لا تُرمّم، وقلوبًا يشتدّ ظلامها شيئًا فشيئًا مع مرور الزمن.

ذلك أن الألم لا يُقاس دائمًا بحجم الحادثة التي أحدثته، ولا بمدى فداحتها في أعين الناس؛ فقد يكون ما نراه عابرًا هو، في حقيقة الأمر، اللحظة التي يتصدّع

فيها شيء عميق داخل الإنسان، دون أن ينتبه أحد إلى ذلك التصدّع.

وقد تعلّمت زهرة، بعد كلّ ما مرّت به، أن الأحداث المؤلمة لا تنتهي بالضرورة حين تنقضي أسبابها، وأن الإنسان قد يغادر المكان الذي آلمه، لكنه لا يغادر دائمًا ما تركه ذلك المكان فيه. فثمة أشياء تنقضي في الواقع، ثم تواصل حياتها في الذاكرة، وثمة جراح لا تحتاج إلى أن تُفتح من جديد حتى يشعر المرء بوجودها.

ولعلّ أكثر ما أتعب زهرة لم يكن ما حدث لها وحده، بل ما ظلّ عالقًا منها بعده؛ ذلك الجزء الذي لم يستطع أن ينسى، ولم يجد سبيلًا إلى الفهم، فظلّ يسأل، ويعاتب، ويعيد محاكمة الماضي، كأنّ الإجابة وحدها قادرة على إعادة ما انكسر إلى هيئته الأولى.

عالم خالٍ من البحار

لم تعد زهرة ترتاد البحر مع أبيها في تلك الكوابيس، ولم تعد تتأمل عودته، أو تنتظر أن يظهر لها من جديد عند آخر ذلك الأفق الذي طالما التصق بذاكرتها. لم تعد تعرف كيف تواجه نفسها بعد تلك الملحمة، ولا كيف تنظر إلى ما بقي منها دون أن تستعيد، ولو للحظة، ما حاولت أن تتركه خلفها.

إذ إن زهرة هي من عاشتها، ولست أنا الراوية. هي التي عبرت تلك الحياة بكل ما فيها، وهي التي حملت آثارها إلى ما بعدها، أما أنا فلم أفعل سوى أن رويت ما استطعت الوصول إليه من حكايتها.

لم أروِ هذه القصة طمعًا في زخرفة خيالية، ولا رغبةً في أن أضيف إلى عالمها أحداثًا غريبة تزيده غرابة، بل كان الغرض من ذلك العبور إلى مرحلة أعمق في شخصية زهرة؛ إلى ذلك الجزء الذي لا تكشفه الأحداث وحدها، وإنما تكشفه الحياة التي تأتي بعدها، حين ينتهي كل شيء ظاهريًا، ويبقى الإنسان مضطرًا إلى مواصلة العيش بما خلّفته التجربة فيه.

زهرة عاشت ما عاشته، وما بقي من حياتها لم يعد هو المهم بقدر ما أصبح ذلك السؤال الذي ظلّ يرافقها: ما معنى وجودها، ولماذا كان عليها أن تعبر كل ذلك الخوف حتى تبلغ هذه المرحلة من حياتها؟ لم تكن تملك إجابة، وربما لم تعد تنتظر واحدة. فقد يتعب الإنسان من كثرة البحث، لا لأنه بلغ الحقيقة، بل لأنه أدرك أن بعض الأسئلة لا تمنحه سوى مزيد من الأسئلة.

وحتى بعد بلوغها الخامسة والأربعين، تعلّمت أن للإنسان نصيبًا من الراحة، وأن الحياة، مهما أمعنت في قسوته، لا تستطيع أن تطالبه بالبقاء في حالة تأهّب دائمة. كان عليها أن تعيش، لا أن تظلّ أسيرة ما عاشته، وأن تترك لبعض الأيام أن تمرّ دون أن تحاول استخراج معنى منها.

عاشت حياة خالية من التفاصيل.

ولعلّ هذا أكثر ما يلفت النظر في حياتها اللاحقة؛ فقد نسيت بالفعل كيف تصنع تلك التفاصيل الإنسانية الصغيرة، كيف تمنح يومًا عاديًا شيئًا يستحق أن يُحفظ، وكيف تسمح للحظات العابرة بأن تصبح ذكريات. ليس لأنها لم تعد إنسانة، ولا لأنها فقدت الإحساس بما حولها، بل لأنها لم تعد تريد أن تبكي شوقًا وحنينًا إلى تلك التفاصيل التافهة التي لا ينتبه إليها المرء إلا بعد أن يفقدها.

كانت تعرف أن الأشياء الصغيرة ليست صغيرة دائمًا، وأن الإنسان قد يتعلّق بتفصيل عابر أكثر مما يتعلّق بأعوام كاملة. لذلك لم تُتعب نفسها كثيرًا في البحث عنها، ولم تحاول أن تصنع من حياتها عالمًا مزدحمًا بالأحداث. اكتفت بما استطاعت احتماله، وكأنها عقدت مع الحياة اتفاقًا صامتًا: أن تمنحها قدرًا من الهدوء، وأن تكفّ هي عن مطالبتها بما لا تستطيع تقديمه.

لم تنجب إلا ابنًا واحدًا.

وبعده لم تعرف كيف تواجه الحياة بطفل آخر. لم يكن الأمر مجرد قرار يتعلق بالإنجاب، بل ربما كان عجزًا عن تخيّل نفسها وهي تعيد خوض تجربة الحياة من بدايتها مع إنسان آخر، تمنحه من وقتها وذاكرتها ومشاعرها، ثم تراقبه وهو يشقّ طريقه في عالم لم تعد زهرة نفسها تعرف كيف تتعامل معه.

لم تكن تكره الحياة، لكنها لم تعد راغبة في تكرارها بكل ما تفرضه من بدايات وتعلّقات وانتظارات. لقد عاشت ما يكفي لتدرك أن الاستمرار لا يعني بالضرورة الرغبة في المزيد، وأن الإنسان قد يختار حياة أقلّ ازدحامًا لا لأنه لم يعد يملك ما يقدّمه، بل لأنه لم يعد يريد أن يخسر من نفسه شيئًا آخر.

وهكذا مضت زهرة في عالمها، لا بحر تستعيد عنده ماضيها، ولا كوابيس تعيدها إلى أبيها، ولا تفاصيل كثيرة تتشبّث بها. عالمٌ بدا خاليًا من البحار، وربما خاليًا من أشياء أخرى كثيرة، لكنه كان، على الأقل، العالم الذي استطاعت أن تعيش فيه دون أن تضطر إلى استعادة كل ما مضى.

وها قد بلغت زهرة الثانية والسبعين من عمرها، ومات فارس بنوبة قلبية عن عمر يناهز الخامسة والسبعين. مات بجانبها على السرير، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وكأنّه لم يكن يفعل سوى أن يستسلم أخيرًا لشيء ظلّ يقترب منه طوال حياته. كانت تلك نهاية توقعتها زهرة أكثر من أي شخص عرف فارس، وربما كانت الوحيدة التي لم تفاجئها حين وقعت؛ فقد كان في فارس شيء من ذلك الإنسان الذي يبدو وكأنّه يعرف حدود حياته، وإن لم يتحدث عنها، ولا يحاول أن يغيّر مسارها.

لم تكن زهرة بحاجة إلى أن يخبرها أحد بأن نهايته قد تكون على هذا النحو. لقد عاشت معه أعوامًا طويلة، ورأت من طباعه ما يكفي لتعرف أن جسده، مهما أظهر من صلابة، ليس بمنأى عن التعب، وأن الإنسان قد يظلّ وفيًّا للحياة حتى وهو يقترب من نهايتها.

لقد كان فارس شخصًا وفيًّا إلى أبعد الحدود، وفاءً لم تكن زهرة تعرف دائمًا كيف تستقبله، ولا كيف تردّ عليه بما يستحق. لم يكن رجلًا مثاليًا، ولم تكن علاقته بها خالية من العثرات، لكنه كان، على طريقته الخاصة، حاضرًا في حياتها حضورًا لم تستطع السنوات أن تمحوه. كان يعرف أن زهرة لا تمنح الأشياء معناها بالطريقة التي يفعلها الآخرون، وأن ما يبدو لها عاديًا قد يكون في داخلها أثقل من أن يُحتمل، لذلك لم يكن ينتظر منها أن تعبّر عن كل شيء، أو أن تمنحه اعترافًا دائمًا بمقدار ما يعنيه لها.

كانت أحيانًا تنظر إليه وتبتسم، دون أن تلقي على تلك الابتسامة سببًا واضحًا، وكأنّها عثرت في وجهه على شيء لا تعرف كيف تصفه. ثم تقول له:

«ربما في الحياة القادمة سنكون أكثر سعادة من هذا الوقت».

كان يغضب منها متعمّدًا، ويظهر استياءه من تلك العبارة، لا لأنه يكره سماعها، بل لأنه كان يعرف ما تختبئ وراءه. لم يكن يريد أن يجعلها تتعامل مع حياتها بوصفها انتظارًا لحياة أخرى، ولا أن تقنع نفسها بأن السعادة لا يمكن أن تكون إلا في زمن

لم يأتِ بعد. كان يريد منها أن تلتفت إلى ما بقي لها في هذه الحياة، حتى وإن كان قليلًا، وحتى وإن لم يكن على الصورة التي تمنّتها يومًا.

كان يتعمّد إثارة إنسانيتها، وإجبارها على تقبّل نفسها، أو على الأقل محاولة ذلك. أرادها أن تعبر من خلال حنقها وغضبها عن كل ما عاشته من فظاظة في هذه الحياة؛ أن تعترض حين تتألم، وأن تغضب حين تُستفزّ، وأن تسمح لنفسها بأن تكون إنسانة عادية، لا ذلك الكائن الصامت الذي تعلّم أن يستقبل ما يحدث له دون أن يطالب بشيء.

لم يكن فارس يظنّ أن الغضب سيعيد إليها ما فقدته، لكنه ربما كان يعتقد أن انفعالها، مهما بدا بسيطًا، دليل على أن شيئًا فيها لم ينطفئ تمامًا. كان يريد أن يراها تختلف معه، أن ترفض رأيه، أن تتذمّر من أفعاله، وأن تغضب منه لأسباب لا تستحق أن تُحفظ في الذاكرة. أراد لها تلك الخلافات الصغيرة التي يصنعها الناس دون أن يدركوا أنها، في نهاية الأمر، من أكثر الأشياء التي تمنح الحياة شكلها الإنساني.

ولعلّه كان يدرك أن زهرة لم تعد تعرف كيف تصنع التفاصيل، فحاول أن يصنع بعضها نيابة عنها، حتى وإن كانت تلك التفاصيل تبدأ بخصام وتنتهي بابتسامة.

ومع ذلك، لم يكن قادرًا على تغيير كل شيء فيها. فقد عاش معها زمنًا طويلًا، لكنه لم يستطع أن يجعلها تنسى ما حدث، ولم يكن ذلك ما أراده بالضرورة. ربما أدرك، بعد كل تلك السنوات، أن الإنسان لا يُشفى من ماضيه لمجرد أن أحدًا أحسن معاملته، وأن الحب، مهما كان وفيًّا، لا يملك سلطة إعادة الأشياء إلى هيئتها الأولى. لكنه بقي معها، ولم يجعل عجزه عن إصلاح ما انكسر سببًا للرحيل.

ثم مات فارس بجانبها دون أن يودّعها.

لم يرد توديعها. لم يترك لها كلمات أخيرة، ولا وصية، ولا وعدًا مؤجلًا إلى لقاء آخر. لم يمنحها حتى فرصة أن تستعدّ لفكرة غيابه، وكأنّه أراد أن يترك موته بعيدًا عن كل تلك التفاصيل التي قضى عمره يحاول إعادتها إلى حياتها. انتهى الأمر في

هدوء لا يشبه بالضرورة السلام؛ كان هناك، ثم لم يعد.

كانت ابتسامته العريضة آخر ما بقي منه في تلك اللحظة، ابتسامة لم تعرف زهرة إن كان ينبغي لها أن تفهمها على أنها رضا، أم سعادة، أم مجرد تعبير عابر لم يعد صاحبه موجودًا ليشرح معناه.

لم يكن الموت غريبًا عن تصوّرها، ولم تكن فكرة فقدانه مستحيلة عليها. لقد عرفت منذ زمن أن فارس لن يبقى إلى الأبد، وأن السنوات التي جمعتهما لا تستطيع أن تمنحهما امتياز الخروج من قوانين الحياة. ومع ذلك، فإن معرفة الإنسان بنهاية شيء لا تعني بالضرورة قدرته على استقبالها حين تقع.

حتى هي لم تكن تريد توديعه، ومع ذلك...

لم تودّعه، لأنها لم تودّع حتى نفسها. لم تجد في تلك اللحظة ما يستدعي الوداع، أو ربما لم تعد تعرف كيف تودّع أحدًا، بعدما قضت عمرًا طويلًا وهي تحاول ألّا تتعلّق بالأشياء أكثر مما ينبغي. وبعد أسبوع، احتضن الموت أنفاسها، ورحلت زهرة هي الأخرى، تاركةً وراءها ابنها الوحيد وأحفادها وكل من أحبّها، يتأملون وجهها الأبيض المتجعّد.

كان وجهها يحمل من الأعوام ما لا تستطيع الكلمات أن تستوعبه؛ لم يكن وجه امرأة بلغت الثانية والسبعين فحسب، بل وجه إنسانة عبرت حياة كاملة، وتبدّلت فيها أشياء كثيرة، حتى إن الذين عرفوها لم يكونوا بالضرورة يعرفونها حقّ المعرفة. كانوا يرون ملامحها، ويسمعون صوتها، ويعرفون بعضًا من أخبارها، لكنهم لم يكونوا يعرفون ما الذي بقي منها بعد كل تلك الأحداث، ولا أيّ جزء من حياتها ظلّ يرافقها حتى اللحظة الأخيرة.

وربما كان ذلك شأن الإنسان دائمًا؛ أن يعيش بين الآخرين، ويشاركهم أيامًا طويلة، ثم يرحل وفي داخله أشياء لم يستطع أحد بلوغها. ليس لأن الآخرين لم يحبّوه، بل لأن في النفس مساحات لا تُفتح بالمحبة وحدها، ولا يستطيع المرء أن يشرحها مهما حاول.

الجميع تناقلوا قصة البحر، لكنهم لم يكونوا حاضرين عندها. لقد سمعوا الحكاية، وتناقلوا تفاصيلها، وربما أضافوا إليها من خيالهم ما جعلها أكثر غرابة، غير أن أحدًا منهم لم يعرف ما جرى هناك على وجه الحقيقة. لم يعرفوا أن زهرة غرقت في البحر بدلًا عن أبيها، وأن تلك الحادثة لم تكن مجرد واقعة من الماضي، بل كانت واحدة من اللحظات التي تشكّلت حولها حياتها اللاحقة.

لقد غرقت زهرة، لكنها قاومت.

اختارت الحياة، أو لعلها تشبّثت بها حين لم يكن أمامها ما تستطيع فعله سوى أن تقاوم. لم تكن تعرف ما الذي ينتظرها بعد ذلك، ولم يكن لديها تصور واضح عن السنوات التي ستعيشها، ولا عن الأشخاص الذين ستلتقي بهم، ولا عن الرجل الذي سيصبح رفيق حياتها. لم تكن تعرف أنها ستبلغ الثانية والسبعين، وأنها ستنجب ابنًا واحدًا، وأنها ستصبح جدة، وأنها ستعيش أعوامًا طويلة في عالم لم يعد يشبه ذلك العالم الذي عرفته في طفولتها.

ومع ذلك، تمسّكت بجذور حياتها، حتى وإن كانت مريضة، وحتى إن لم تكن تلك الجذور قادرة على منحها الطمأنينة التي احتاجت إليها. لم تكن حياتها مكتملة، ولم تكن خالية من النقص، لكنها كانت الحياة التي استطاعت أن تبلغها بعد كل ما حدث.

فحكمة القدر لا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليها، ولا أن يفرض عليها الصورة التي يريدها. قد يقضي عمره محاولًا فهم ما حدث، ويعيد ترتيب الأسباب والنتائج في ذهنه، ويبحث عن معنى يطمئن إليه، لكنه يظلّ عاجزًا عن معرفة كل شيء. فليس كل ما يقع في الحياة قابلًا للتفسير، وليس كل ما نفقده كان في وسعنا الاحتفاظ به، كما أن النجاة لا تعني أن الإنسان قد انتصر على كل ما كان يهدده.

وربما لو ماتت زهرة في ذلك اليوم الذي ماتت فيه أمها منتحرةً بالبندقية، ومات أخوها الذي لقي نحبه إثر تلك المعاناة، لما كان اسمها يُذكر الآن في هذه الرواية. ربما كانت ستُطوى حكايتها في ذلك اليوم، ولما عرفنا شيئًا عن فارس، ولا عن

ابنها الوحيد، ولا عن تلك السنوات التي عاشتها في عالم خالٍ من التفاصيل.

ربما لم يكن أحد ليتساءل عن مصيرها، أو عن المرأة التي كانت ستصبح عليها لو أُتيحت لها فرصة أخرى في الحياة. وربما لم تكن لتوجد تلك المرأة التي بلغت الثانية والسبعين، وجلست إلى جوار رجل أحبّها بطريقته الخاصة، ثم مات قبلها بأسبوع واحد.

لكنها بقيت.

وهذه البقية، على بساطتها، هي التي صنعت بقية الحكاية. لم تكن زهرة تعرف أن نجاتها من ذلك اليوم ستقودها إلى حياة طويلة، ولا أن الحياة التي تمسّكت بها ستمنحها أشياء لم تكن تتوقعها، ثم تأخذ منها أشياء أخرى. لم تكن تعرف أن النجاة نفسها قد تكون بداية لمتاعب جديدة، وأن الإنسان لا يخرج من محنته بالضرورة إلى عالم أكثر رحمة، بل قد يخرج منها ليواجه حياة أخرى، بأشكال أخرى من الخوف والفقد والتعلّق.

ومع ذلك، لم تكن حياتها مجرد سلسلة من الخسارات. فقد عرفت فارس، وعاشت معه أعوامًا، ورأت ابنها يكبر، ثم رأت أحفادها. وربما كانت تلك التفاصيل، على قلتها، كافية لتجعل حياتها مختلفة عمّا كان يمكن أن تكون عليه لو انتهت حكايتها عند البحر. لم تكن سعادتها كاملة، لكنها لم تكن معدومة أيضًا؛ إذ لا ينبغي للإنسان أن يكون سعيدًا طوال حياته حتى يكون قد عاش، ولا أن يحقق كل ما تمنّاه حتى يكون لوجوده معنى.

وربما هناك الكثيرون مثل زهرة.

كثيرون لا يعرف أحد ما الذي اضطرهم إلى احتماله، ولا كيف استطاعوا أن يصلوا إلى يومهم الحاضر. قد تراهم في الشوارع، وفي البيوت، وفي أماكن العمل، يمارسون حياتهم بصورة عادية، ويتحدثون عن أمور لا تستحق الانتباه، ويضحكون أحيانًا لأسباب بسيطة، لكن لا أحد يستطيع أن يجزم بما تحمله ذاكرتهم، أو بما تركته السنوات في نفوسهم.

قد يكون أحدهم قد فقد عالمًا كاملًا، ثم عاد ليعيش بين الناس كأن شيئًا لم يحدث. وقد يكون آخر قد أمضى عمره في محاولة التوفيق بين ما كان عليه وما اضطر إلى أن يصبح عليه. ليس من الضروري أن تكون المعاناة ظاهرة حتى تكون حقيقية، وليس من الضروري أن يروي الإنسان حكايته حتى يكون قد عاشها.

وأنا مثل زهرة تمامًا؛ عشت حياة تماثل حياتها في المرارة، لكنني لست مثلها.

فكل شخص تختلف روايته، حتى وإن تشابهت الظروف التي أحاطت به. لا يمكن أن تتطابق حكايتان لمجرد أن صاحبيهما عرفا الألم نفسه، ولا أن تتشابه نهايتان لأن بدايتيهما كانتا متقاربتين. لكل إنسان طريقته في استقبال ما يحدث له، ولكل واحد منا ذاكرته الخاصة، وأشياؤه التي يخشاها، وتلك التفاصيل التي قد لا يفهمها غيره مهما حاول الاقتراب منه.

وربما لهذا السبب لم أرد أن أجعل زهرة مجرد شخصية عاشت مأساة وانتهت حياتها. لم يكن الغرض من حكايتها أن أُحصي ما فقدته، أو أن أجعل من ماضيها سلسلة من الأحداث المؤلمة التي تتراكم حتى تبلغ نهايتها. أردت أن أعرف ماذا يفعل الإنسان بعد ذلك كله؛ كيف يعيش حين تنتهي الأحداث التي صنعت خوفه؟ وكيف ينظر إلى نفسه حين لا يعود مضطرًا إلى الهرب، لكنه لا يعرف أيضًا كيف يستقرّ؟ وكيف يمكن لإنسان أن يواصل حياته دون أن يجعل من ماضيه تعريفًا وحيدًا لوجوده؟

إن المشترك بيننا، في نهاية الأمر، هو المقاومة؛ أن نقاوم ما نخشاه من ألم، وأن نحاول ألّا نستسلم لكل ما يهدد قدرتنا على الاستمرار. وليس المقصود بالمقاومة أن ينتصر الإنسان دائمًا، أو أن يخرج من كل تجربة أكثر قوة، أو أن يتجاوز ما أصابه كما لو أنه لم يحدث قط. فقد يضعف، وقد يتعثر، وقد يحمل آثار ما عاشه إلى آخر أيامه، ومع ذلك يكون قد قاوم.

فالمقاومة ليست بطولةً دائمة، ولا موقفًا عظيمًا يحتاج إلى شهود حتى يُعترف به. قد تكون في أبسط صورها أن يستيقظ الإنسان في يوم لا يرغب فيه بشيء، ثم

يحاول أن يمضي في شأنه. وقد تكون في أن يسمح لنفسه بأن يحبّ مرة أخرى، أو أن يضحك دون أن يشعر بالذنب، أو أن يتصالح مع حقيقة أنه لم يعد الشخص الذي كانه من قبل.

ذلك ما أجده جوهر الحياة نفسها؛ لا تعظيمًا وتكريمًا للحياة لذاتها، ولا افتراضًا بأنها عادلة أو جميلة في كل أحوالها، بل احترامًا للإنسان نفسه.

فالإنسان ليس مطالبًا بأن يكون منتصرًا حتى يستحق الاحترام، ولا بأن تكون حكايته عظيمة حتى يكون لوجوده قيمة. قد يكون قد أخفق في أشياء كثيرة، وقد لا يكون قد بلغ شيئًا مما أراده، وربما عاش حياة لم يفهمها حتى نهايتها، لكنه يظل إنسانًا في الأخير.

إنسانًا له حقّه في أن يتألم، وفي أن يضعف، وفي أن يخطئ، وفي أن يحاول من جديد، دون أن يُختزل في أسوأ ما حدث له أو في أكثر لحظاته انكسارًا.

ولعلّ زهرة لم تكن بحاجة إلى أن تكون سعيدة طوال حياتها حتى تكون حياتها جديرة بأن تُروى. لم تكن بحاجة إلى أن تنتصر على ماضيها، أو أن تنسى أباها، أو أن تتخلص من كل ما خلّفته التجربة في نفسها. يكفي أنها عاشت حكايتها، وأنها، رغم كل ما حدث، استطاعت أن تبلغ أيامًا لم تكن تتصور يومًا أنها ستعيشها.

أما أنا، فلا أريد أن أقول إنني زهرة، ولا أن حكايتها هي حكايتي. لكنني أعرف ذلك التشابه الذي يجعل الإنسان يرى نفسه في شخص آخر، لا لأنه عاش الأحداث ذاتها، بل لأنه عرف شيئًا من المرارة التي تسكن خلفها.

وربما لهذا السبب رويت قصتها.

ففي عالم خالٍ من البحار، قد لا يجد الإنسان مكانًا يعود إليه، ولا ذاكرة يستطيع أن يطمئن إليها، لكنه يظلّ إنسانًا، ولهذا وحده تستحق حكايته أن تُروى.